

جامعة عين شمس
كلية الآلسن
قسم اللغة العربية

مختارات

من النصوص الشعرية والنثرية من العصر العباسي

دكتور

أحمد أميه مصطفى

استاذ الدراسات الادبية بكلية الآلسن

حقوق الطبع محفوظة للناشر

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

النشر

دار النشر

٩ درة الزمان - خلف الجامع الأزهر الشريف ت: ٥١٢٠٨٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه نصوص مختارة من الشعر والنثر من أدب العصر العباسي، وهو العصر الذهبي للأدب العربي، وقد اخترت هذه النصوص لكبار الأدباء الذين يشهد لهم مؤرخو الأدب بالفضل والسبق.

ووقع اختياري على قصائد لأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمنتبي في أغراض مختلفة، وهؤلاء الأربعة من قمم الشعر العربي، كما اخترت من النثر رسالة على لسان أحمد بن طولون كتبها كاتبه جعفر بن عبدكان موجهة إلى العباس بن أحمد بن طولون حين خرج على أبيه، واخترت أيضا المقامة الإبلسية، والمقامة الأسدية لبديع الزمان الهمذاني لما للمقامة من الأثر الواضح في الأدب العربي.

وقد شرحت هذه النصوص شرحا وافيا يوضح معانيها، ويجلو مواطن الجمال والبلاغة فيها، والله أسأل أن ينفع بها طلاب العلم.

والله ولي التوفيق..

د. أحمد أمين مصطفى

أستاذ الدراسات الأدبية بكلية اللسان

قال أبو تمام يمدح الخليفة المعتصم

- ١ - رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
- ٢ - نزلت مقدمة المصيف حميدة
- ٣ - لولا الذي غرس الشتاء بكفه
- ٤ - كم ليلة آسى البلاد بنفسه
- ٥ - مطر يذوب الصحو منه وبعده
- ٦ - غيثان فالأنواء غيث ظاهر
- ٧ - وندى إذا ادهمت به لم الثرى
- ٨ - أربيعنا فى تسع عشر حجة
- ٩ - ما كانت الأيام تسلب بهجة
- ١٠ - أو لا ترى الأشياء إن هى غيّرت
- ١١ - يا صاحبيّ تقصّياً نظر يكما
- ١٢ - تريا نهاراً مشمساً قد شابه
- ١٣ - دنيا معاش للورى حتى إذا
- ١٤ - أضحت تصوغ بطونها لظهورها
- ١٥ - من كل زاهرة ترقّرق بالندى
- ١٦ - تبدو ويحجبها الجحيم كأنها
- ١٧ - حتى غدت وهداتها ونجّادها
- ١٨ - مصفرة محمرة فكانها
- ١٩ - من فاقع غضّ النبات كأنه
- ٢٠ - أو ساطع فى حمرة فكانما
- ٢١ - صنّع الذى لولا بدائع لطفه
- وغدا الثرى فى حليه يتكسر (١)
- ويد الشتاء جديدة لا تكفر (٢)
- لاقى المصيف هشائماً لا تثمر (٣)
- فيها ويوم وبله مشعنجر (٤)
- صحو يكاد من الفضارة يمطر (٥)
- لك وجهه والصحو غيث مضمّر (٦)
- خلت السحاب أتاها وهو معذّر (٧)
- حقاً لهنك للربيع الأزهر (٨)
- لو أن حسن الروض كان يعمّر (٩)
- سمجت وحسن الروض حين تُغيّر
- تريا وجوه الأرض كيف تصوّر (١٠)
- زهر الربا فكانما هو مقمر (١١)
- جلى الربيع فلانما هى منظر
- نورا تكاد له القلوب تُنور (١٢)
- فكانها عين إليك تحدر (١٣)
- عذراء تبدو تارة وتخفّر (١٤)
- فعتين فى خلع الربيع تبخر (١٥)
- غصّب تيمّن فى الوغى وتمضّر (١٦)
- در يشقق قبل ثم يزعفر (١٧)
- يد نو إليه من الهواء معصفر (١٨)
- ما عاد أصفّر بعد إذ هو أخضر

- ٢٢ - خلق أطل من الربيع كأنه
٢٣ - فى الأرض من عدل الإمام وجوده
٢٤ - تُنسى الرياض وما يروّض فعله
٢٥ - إن الخليفة حين يُظلم حادث
٢٦ - كثرت به حركاته ولقد تُرى
٢٧ - ما زلت أعلم أن عقدة أمرها
٢٨ - سكن الزمان فلا بد مذمومة
٢٩ - نظم البلاد فأصبحت وكأنها
٣٠ - لم يبق مبدى موحش إلا ارتوى
٣١ - ملك يضل الفخر فى أيامه
- خلق الإمام وهديه المتيسر
ومن النبات الغضّ سُرج تَزهَر (١٩)
أبدا على مرّ الليالى يُذكر
عين الهدى وله الخلافة محجر
من فترة وكأنها تتفكر (٢٠)
فى كفه مذ خلّيت تتخيّر (٢١)
للحادثات ولا سوام يُذعر (٢٢)
عقد كأن العدل فيه جوهر
من ذكره فكانما هو محضر (٢٣)
ويقل فى نفحاته ما يكثر (٢٤)

- ١ - تمرمر تمرمر أى تموج وتضطرب لنا ونعمة الثرى التراب أى يتكسر النبات لرطوبته إذا ميلته الريح .
- ٢ - جديدة بمعنى طرية لأن الأرض نديت حتى تنبت الحبوب .
- ٣ - هشائم جمع هشيمة وهى الشجرة اليابسة .
- ٤ - آسى الشتاء البلاد بنفسه - وبله مثعنجر مطره غزير .
- ٥ - لأنه عقيب المطر يكون أشد زرقة .
- ٦ - مضمر لأنه لا يرى ولكنه رطوبة الهواء .
- ٧ - اللمة شعر فى الرأس والمراد قمم النبات - يعتذر السحاب بسبب المطر القليل .
- ٨ - بعد تسع عشرة سنة بعد المائتين من الهجرة - الأزهر الأعظم .
- ٩ - يعمر يدوم . ١٠ - تتصور بالوان الزهر .
- ١١ - خالط بياض الزهر والأنوار بياض النهار فكانه مقمر لا مشمس .
- ١٢ - لأن بطونها تسقى العروق الماء الذى به تحصل الأنوار .
- ١٣ - أى يتحدر دمعها . ١٤ - الجميم النبات المتكاثف .
- ١٥ - الوهدة ما انخفض من الأرض، والتجد ما ارتفع منها .
- ١٦ - عصب رايات ، ورايات اليمن صفر، ورايات مضر حمر .
- ١٧ - الفاقع من صفات الأصفر، هذه الأنوار كانت كالدر فى البياض، ثم انشقت فخرج نورها الأصفر .
- ١٨ - أى ينزل إليه من الهواء ما يعصفه .
- ١٩ - سرج جمع سراج وهو المصباح .
- ٢٠ - كثرت الحركات فيقتل ويمنح ويولى ويعزل .
- ٢١ - تختاره مذكليت لا تؤثر عليه أحدا . ٢٢ - سوام مطلقة بلا حارس .
- ٢٣ - مبدى موضع بالبدو، محضر من الحضر .
- ٢٤ - النفح الريح الباردة، وهنا العطاء لأنه يبرد غليل طالب العطاء .

* * *

أبو تمام

هو حبيب بن أوس الطائي، ولد بقرية قرب دمشق، ونشأ بدمشق، وتردد على مجالس العلم، وظهرت شاعريته المتدفقة، ثم قصد مصر في أوائل القرن الثالث الهجري، وأقام بها مدة يسقى الماء في مسجد عمرو بن العاص، ويحضر مجالس العلم والأدب، ثم عاد إلى دمشق، ثم ذهب إلى بغداد مقر الخلافة العباسية، وتردد بين بغداد ودمشق، وتزوج أوتمام وكان له أولاد كثيرون، وكان أوتتمام حاضر البديهة يحب المزاح ويميل إلى اللهو، ولكنه يترفع على الدنيا.

وكان أبو تمام يكثر من المديح، ومدح الخليفة المأمون، واتصل بالخليفة المعتصم. ومن مدائحه فيه هذه القصيدة التي ندرسها، ومدح كثيرين من القادة الذين ظهروا في الحروب ضد الروم وضد الخارجين على الدولة، كما أنه اهتم بالغزل وأكثر منه في مطالع القصائد، كما برع في وصف الطبيعة وشخصها ومزج بين الطبيعة والمرأة، وصنف كتباً منها (ديوان الحماسة)، وهو مختارات لبعض الشعراء البارزين، ومات أوتتمام سنة ٢٣١ أو سنة ٢٣٢ هـ.

وغلبيت على هذا العصر مدرستان، مدرسة يتزعمها الشاعر البحتري، ويقف موقفاً وسطاً، يقرأ ما أثر عن العرب، ويقرأ ما ترجم عن اللغات الأجنبية ويقتبس منه ويطبعه بالطابع العربي مع تلويحه بلون العصر، أما المدرسة الثانية فيتزعمها أبو تمام ونطلق عليها مدرسة المجددين، وقد ألم أبو تمام بمعارف عصره العربية والأجنبية من التاريخ والفلسفة وعلم الكلام والمنطق والنحو والبلاغة، وكان يحفظ كثيراً من الشعر القديم والحديث.

وظهرت آثار هذه الثقافات في شعر أبي تمام وفي خصب عقليته، وكان يغوص على المعاني ويأتي بالجديد منها، كما امتاز بروعة التصوير والأفتنان في تركيب الصور، وكان يكثر من الصور حتى تتداخل وتغمض أحياناً، كما كان يهتم بالمحسنات البديعية وأتى بما يثير الإعجاب أحياناً ويثقل على الأسماع أحياناً أخرى، واختلف الناس في موقفهم من أبي تمام والبحتري، وتعصب لكل شاعر منهما فريق، ومهما قيل فإن أبا تمام يعد في الطبقة الأولى من شعراء العربية.

شرح القصيدة

أنشأ أبو تمام هذه القصيدة أساساً في مدح الخليفة المعتصم، ولكننا نراه يهتم اهتماماً كبيراً بوصف الطبيعة في مطلع الربيع بعد أن انقضى فصل الشتاء وقرب فصل الصيف، وأبو تمام شاعر ذواقة يرى الجمال في كل شيء ويرى الجمال في كل فصل، وهو على العكس من كثير من الشعراء الذين لا يرون في الشتاء جمالاً، فأبو تمام يرى أن الشتاء يبعث الحياة في الطبيعة بما يبعثه من الأمطار والرطوبة، ولولاه لصارت هشيماً يابساً في فصل الصيف .

١ - ٤ - يصف الشاعر جمال الحياة وما تخللها من رقة وتفتح وازدهار حتى غدت تموج باللين والنعمة، وحتى غدا النبات يتمايل ويتثنى لرطوبته إذا ميلته النسائم، وقد حل فصل الربيع وأوشك الصيف على القدوم وما زالت آثار الشتاء بادية في الطبيعة حيث النداء والطراوة في كل مظاهر الحياة، ولولا ما صنعه الشتاء بالطبيعة لصارت النباتات والأزهار هشيماً يابساً، فقد أنعم الشتاء على الأرض بما بعثه من حيوية وبما أرسله من أمطار وأنداء بعثت الرى والازدهار .

٥ - ٧ - تبدو مظاهر الجمال في فصل الشتاء حين تسقط الأمطار وحين تقلع، فحين تسقط الأمطار ويختفى الصحو يعقب ذلك صحو ونضارة حيث تكون السماء أشد زرقة وإشراقاً، فإذا كانت الأمطار تحيي الطبيعة وتفتح أزهارها فإن الصحو غيث خفي يبعث الخصب ويبدى مظاهر الجمال ويجعل الحياة أشد إشراقاً، وفي المساء يعانق الندى قمم النبات فكأنه طيب تدهن به هذه القمم، وكأن المطر يعتذر للنبات لعدم زيارته، ويقدم هذا الندى هدية لهذه النباتات .

٨ - ١٠ - يخاطب الشاعر الربيع في هذا العام التاسع عشر بعد المائتين، وقد مضى العام الأول من خلافة المعتصم، ويقول : إنه أجمل ربيع مر بنا، وهنا يمزج الشاعر بين المديح والوصف، ويرى أن الحياة تزدد جمالاً حين يزدهر الروض وتتفتح الأزهار، ولكن تغير الفصول لا يسلب الحياة جمالها .

١١ - ١٣ - يخاطب الشاعر صاحبيه لافتاً أنظارهم الى جمال الطبيعة، ويحثهما على التعمق في استشفاف مظاهر الجمال، ويبدو هنا عمق النظرة وفلسفة الفكرة، ويقول: إن بياض النهار وسطوع ضوء الشمس يخالط لون الزروع والأزهار فيبدو الجو كأنه مقمر لا مشمس، وقد خلق الله الحياة لنعمل في سبيل الكسب والعيش، وحين يحل الربيع تكون الحياة للمتعة بالجمال ومناظر الطبيعة الخلابة.

١٤ - ٢١ - يصف الشاعر مظاهر الطبيعة الجميلة وتفتح الأزهار، ويلتفت أبونتمام الى القوة الكامنة وراء المظاهر البراقة، والتي تبعث الحياة في الطبيعة، ويقرن ذلك بوصف مشاعره تجاه مظاهر الطبيعة فيقول: إن القوة الكامنة وراء مظاهر الطبيعة تخلق في الطبيعة الظاهرة النور والزهر، ويجعل القلوب تنور حين ترى هذا النور، وحين ترى الزهرة تترقرق بالندى تراها كأنها عين تنظر الى الرائي وتسيل دموعها.

ويمزج أبونتمام بين الطبيعة والمرأة، ويرى الزهرة تتمايل على فرعها بين النباتات فتظهر مرة وتختفي أخرى وكأنها عذراء تنظر من بين الستور فيظهر وجهها ثم تختفي حياء وخفراً، وتكتس الأرض كلها مرتفعاتها ومنخفضاتها بالنبات والزهر وكان الأرض كلها تلبس أثواباً قشبية وتتمايل معجبة بنفسها وبما ألبستها الطبيعة من ثياب براق، وتبدو الأزهار والعبدان بألوانها الصفراء والحمراء فكأنها رايات يمينية ومضرية، ورايات اليمن صفراء، ورايات مضر حمراء، ويتعمق الشاعر في وصف الألوان، فالزهر الأصفر كان قبل تفتحه في بياض الدر ثم انشق فخرج منه الزهر الأصفر الفاقع كأنه مطلى بالزعفران، أما الزهر الأحمر فتسطع ألوانه فكان الهواء قد طلاه بالعصفر، وتتجلى هنا قدرة الله الذي يخرج النبات في خضرته الزاهية ثم يولد منه الأزهار بألوانها المتعددة.

٢٢ - ٣١ - ينتقل الشاعر الى مدح الخليفة المعتصم، ويمزج بين المدح والوصف أيضاً، ويقول: إن صنيع الزمان في فصل الربيع كصنيع الإمام في خلقه

وهديه، فقد نشر العدل وأغدق العطاء، وتعانق جمال الربيع وجمال عهد الخليفة
فأضاء الدنيا، وقد ينسى جمال الربيع حين يزول، أما جمال أيادي الخليفة فلا
ينسى .

ويستمر في مدح الخليفة ويعقد رابطة قوية بينه وبين الخلافة حتى إن
الخلافة لا ترضى إلا به، ويجعل الخلافة كمحجر العين والمعتصم فيها كسواد
العين، وأفعاله العظيمة تتوالى على مر الأيام، فهو يثيب ويعاقب ويولي ويعزل من
يشاء لأمره وكان الخلافة قبله كانت تتفكر وتتخير من يتولاها فاختارته
مدبرا لأمرها، وفي عهده أمنت البلاد من الحوادث المكدره، وآمن الناس حتى
السوائم التي ترعى لا تخاف شيئا يذعرها، وصار العدل عنوان الخلافة وجوهر
عقدها، وازدان كل شيء في الدولة العباسية، وهنا يقف الكلام عاجزا لا يجد ما
يعبر به عن عظمته ويوفيه حقه .

* * *

نقد القصيدة

أنشأ أبو تمام هذه القصيدة في مدح الخليفة المعتصم بعد مضي عام واحد على توليه الخلافة لأن المعتصم تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ بعد وفاة أخيه المأمون، وأبو تمام شاعر الطبيعة وله مبتكرات عديدة في هذا المجال، ونراه هنا يستغرق أكثر من نصف القصيدة في وصف الطبيعة في مطلع الربيع بعد انقضاء فصل الشتاء، وأبو تمام شاعر ذواق يرى الجمال في كل شيء، وإذا كان كثير من الناس لا يرون في فصل الشتاء جمالا فإن أبا تمام يرى فصل الشتاء صاحب اليد الطولى في تفتح الطبيعة وازدهارها وما تزخر به من الطراوة بما يبعثه من الأمطار والرطوبة التي تظل الطبيعة محتفظة بها أيام الصيف.

ومطلع القصيدة غير تقليدي حيث لم يبدأ بالغزل في أى صورة من صوره، وكان البدء بالغزل مازال سائدا على الرغم من ثورة أبي نواس عليه ودعوته الى استبدال الخمرة بالأطلال، ولم تلاق هذه الدعوة نجاحا كبيرا لأن أبا نواس كان شعوبيا متعصبا ضد العرب، ولأنه دعا الى افتتاح القصائد بوصف الخمرة والاسلام يحرم الخمرة.

ويتميز أبو تمام بالمزج بين المدح ووصف الطبيعة والمزج بين الغزل والطبيعة، ويتميز بالتشخيص وبالتجسيم، والتشخيص إبراز الأشياء في صورة انسان حي، والتجسيم إبراز المعنوي في صورة حسية مجسمة، واستطاع أبو تمام أن يصور الحركات فهو يصور حركة النبات وتمايله بقوله: يتمرمر ويتكسر أى يتثنى، والتعبير بالفعل الماضى (رقت) لتأكيد الحدث، ويوحى بالنعيم والشفافية، أما التعبير بالفعل المضارع فهدفه استحضار الصورة، والشاعر هنا يعلن عن جمال الطبيعة في فصل الربيع واستمرار مظاهر الجمال التي غرسها الشتاء في بواطن الحياة، ونرى التشخيص في قوله: (يد الشتاء) حيث جعل للشتاء يدا، وفي قوله: (غرس الشتاء بكفه) حيث جعل للشتاء كفا وأسند اليه فعلا من أفعال الانسان وهو الغرس، والفعل غرس يوحى بالعمق والاستقرار، المصيف والشتاء طباقي.

كم خبرية تفيد الكثرة، آسى توحى بالتعاطف بين المطر والبلاد، مشعنجر لفظ قديم ثقیل على اللسان، وأبوتنام يتميز بعمق المعانى وفلسفتها والقدرة على التمييز بين المعانى الدقيقة والموازنة بينها، وهنا يتحدث عن المطر ويتحدث عن الصحو الذى يعقب المطر، ويجعله الشاعر غيثا آخر، ذلك لأن الغيث يروى الأرض والنبات والأزهار ويبعث الخصب والازدهار، وهذا ظاهر للعين، أما الصحو فإنه غيث مضمّر خفي يكاد يمطر لشدة رزقه، وهو يؤثر فى الجو ويعطى رطوبة فى الهواء، وهذه نظرة نفاذة فاحصة، يذوب الصحو وبعده صحو مقابلة، والفعل يذوب يوحى بزوال الصحو تماما لغزارة الأمطار، وهنا طباق بين ظاهر ومضمّر، ادهنت لم الثرى استعارة مكنية شبه قمم النبات بإنسان يدهن رأسه، والفعل ادهن يوحى بطيب رائحة الندى وكأنه طيب يدهن به، ولم هنا مناسبة لأن اللمة الشعر فى الرأس وأعلى النبات هو الذى يصيبه الندى، وإذا تفيد التوكيد، والفعل أتاها استعارة مكنية.

واستمر الشاعر فى حديثه عن الربيع وجماله وفضل ربيع هذا العام على غيره وأشار إشارة تاريخية إلى السنة دون أن يخرج إلى مجال علمى جاف، وجاء هذا التحديد بمناسبة مرور عام على خلافة المعتصم، ونادى الربيع وشخصه وأجرى معه حديثا، وهنا نداء للتعظيم وأكد تفوق هذا العام بقوله: (حقا) وبإداة التوكيد إن، وباللأم المقترنة بخبر إن، وبوصف الربيع بالأزهر وهو اسم تفضيل مقرون بال يفيد التفضيل المطلق، والفعل (تسلب) يوحى بأن حسن الروض شىء عزيز يحرس الناس عليه، وهنا طباق بين تسلب ويعمر، أو لا ترى أسلوب إنشائى استفهام يفيد التقرير (دخلت الهمزة على نفى)، سنج فعل يوحى بالقبح والنفور، وفى البيت مقابلة بين السماجة عند التغيير والحسن عند التغيير فى الربيع.

يا صاحبي نداء الصاحبين تقليد موروث عن الجاهلية حيث كان العرب يسيرون ثلاثة معا خوفا من عدو أو وحش أو جن كما كانوا يعتقدون، وهنا أسلوب انشائى نداء للتنبيه، تقصيا أسلوب انشائى أمر للإرشاد، والفعل تقصيا

ملائم لهذا الموقف الذى يحتاج الى النظرة العميقة، وهنا مقابلة بين (نهارا مشمساً) وهو مقمر، قد للتأكيد، وهنا صورة كلية بديعة حيث شبه الجو فى النهار حين يمتزج به لون الزروع والأزهار بالجو فى ضوء القمر لأن الناظر الى الخضرة وألوان الأزهار يتغير فى عينيه لون الضياء ويمتزج به لون النبات والزهر، وهنا دقة الفكرة وعمق النظرة وروعة التصوير والمقابلة بين المناظر، والبيت الثالث عشر يحوى فكرة تنبىء عن مدى حب أبى تمام للربيع حيث جعل الدنيا معاشاً للورى فإذا حل الربيع فهي للمتعة، وأكد هذه الفكرة بأسلوب قصر أدواته إنما (إنما هي منظر) وهنا مقابلة.

ثم يتحدث الشاعر عن قوتين إحداهما ظاهرة للعيان والأخرى خفية مؤثرة وتشترك القوتان فى خلق الأزهار وإبراز الجمال فى الكون، فالقوة الباطنة تؤثر فى خلق النور، والقوة الظاهرة تكون الأزهار وتجسمها أمام أعيننا، واختار الفعل (أضحى) لأن الضحى وقت النور الساطع، وتصوغ فعل مضارع لاستحضار الصورة والاستمرار يصور لنا العمل والحركة، بطونها وظهورها طباق، والشاعر يصور مشاعره مع تصوير هذا الخلق فقلبه يكاد ينور لمراى النور، ولم ينس اهتمامه بالمحسنات البديعية فاتى بالجناس بين نور وتنور.

ترقرق أى تترقرق وهو فعل يصور حركة الندى على وجه الزهرة، غير أن أبا تمام لم يوفق فى التشبيه فى هذا البيت حيث شبه الزهرة بترقرق فيها الندى بالعين تترقرق فيها الدموع، والجو النفسى مختلف فى المشبه والمشبه به، ويعود أبا تمام الى الوصف الجميل والتصوير الخلاق فيربط بين الطبيعة والمرأة، وأبو تمام أول من مكن لهذا الربط كما نرى هنا حيث يرسم صورة مركبة ويشبه الزهرة وهي تتمايل وتظهر من بين النبات ثم يحجبها النبات الطويل فيشبهها بعذراء تتطلع من بين الستور ثم يغلبها الحياء فتختفى، وهي صورة مليئة بالحركة والحياة والعاطفة، وهنا طباق بين تبدو ويحجبها، وبين تبدو وتخفى لأنها تتوارى، واختار العذراء لأنها أشد حياء، وحتى تفيد الغاية، وعطف النجاد على الودعات يفيد الشمول، ولفظ تتبختر يوحي بالجمال والزهو، مصفرة محمرة لأن

هذين اللونين هما الغالبان على الزهر، وهنا تشبيهه حيث شبه الورود الصفراء والحمراء برايات اليمن ومضر وذكر طرفي التشبيه، وفي البيت التاسع عشر تشبيه أيضا وهنا شبه النبات في حالته حيث يكون أبيض ثم ينشق فيخرج منه زهر مصفر اللون فشبهه بدرّ انشق ثم طلى بلون الزعفران، وهذا تشبيه تمثيلي، غصن توحى بالطراوة، در توحى بقيمته العظيمة، والفعل يشق يعطينا الحركة والانتقال من حالة الى حالة، ساطع توحى بوضوح اللون وتألقه، وهنا استعارة مكنية حيث شبه الهواء بإنسان يطلّى الزهر بالعصفر ثم يلتفت الى القوة الإلهية العظمى الكامنة، وراء كل شيء والتي تحول مظاهر الحياة من حالة الى حالة.

وفي البيت الثاني والعشرين ينتقل الشاعر الى مدح الخليفة المعتصم مازجا بين المدح ووصف الطبيعة، ويشبه التصرفات الطبيعية الكونية في فصل الربيع بخلق الخليفة وهديه لرعيته، وعلى عادة أبي تمام في التجسيم والتشخيص يجعل الخلق الجميل يطل من الربيع وهنا استعارة مكنية، ثم يصف الخليفة بصفات متعددة حيث وصفه بالخلق الجميل وهدايته لرعيته أو قيادته الرشيدة، ثم يصفه بالعدل والجود، وهما أهم صفتين مطلوبتين في الخليفة، ويجعل العدل والجود وجمال الطبيعة سرجا تنير الحياة، ثم يفضل أفعال الخليفة على جمال الطبيعة، فقد ينسى جمال الطبيعة حين يغيب، أما أفعال الخليفة فخالدة على مر الليالي يرددوها الخلائق، ولفظ أبدا يفيد الدوام، وهنا طباق بين ينسى ويذكر.

وفي البيت الخامس والعشرين يأتي أبو تمام بصورة مبتكرة تربط بين الخلافة والخليفة برباط لا ينفصم، فيجعل الخلافة محجرا للعين والخليفة إنساناً يهدي الناس في الظلمات الحالكة، وأكد ذلك بأداة التوكيد إن، ونرى المقابلة بين يظلم حادث وعين الهدى، وذكر أن الخليفة دائب العمل يولى ويعزل، ويعفو ويقتل وهكذا، وهنا مقابلة بين كثرت حركاتها وتفكر، وشخص الخلافة وجعلها تفكر فترة من الزمان لكي تختار أحق الناس بها، وأكد بقده، والحقيقة أن الخليفة المأمون كان خليفة مثاليا ولكنها عادة الشعراء المادحين في تفضيل كل خليفة يتولى

الخليفة، على أنه ذكر أنها اختارته مذكليت أي منذ مات الخليفة السابق، وبذلك نفى العيب عن الخليفة المأمون.

وقوله: سكن الزمان توحى بهدوء الرعية واطمئناتها، وأكد ذلك فنفي حدوث أى حادثة تعكس صفو الحياة، وشخص الحادثات وجعل لها يدا، ولتأكيد العدل والطمأنينة جعل السوائم ترعى مطمئنة لا يخيفها عدو، وقوله: نظم البلاد توحى بالعدالة.

والمساواة وجمال الحياة حتى إنه شبهها بالعقد تنتظم حياته وتزين من يتقلد به، ثم ركب الصورة فجعل العدل جوهر الحيات أي أكبر الحيات وأبرزها، وهنا تشبيهان شبه الحياة الجميلة بالعقد، وشبه العدل بجوهر الحيات، ولفظ أصبحت يوحى بأن الحياة أصبحت مشرقة فى عهده لأن الصباح زمان الإشراق، وفى البيت الثلاثين أتى بأسلوب القصر للتأكيد وأداته النفي والاستثناء فأكد أن فضل الخليفة عم كل بقعة حتى صارت البوادي كالحواضر، وهنا تشبيه، وفى البيت الأخير (يضل الفخر) توحى بحيرة الفخر وعجزه عن الإحاطة بكل أياديه، ولأن العطاء أهم شئ عند الشعراء أكد جود الخليفة وأنه يفوق كل جود، وأتى بطباق حيث وضع (يقل) بجانب (يكثر) ليبرز تواضع كل عطاء بجانب عطاء المعتصم.

سمات أسلوب أبى تمام - يمتاز بعمق الأفكار والغوص على المعانى والتجديد فيها والإتيان بالإشارات التاريخية والعلمية، والمزج بين الأغراض كالممدح والوصف، والمزج بين المرأة والطبيعة، كما يمتاز بالمبالغة، وعرف أبوتمام بسعة الخيال والتشخيص والتجسيم وابتكار الصور وتركيبها كما عرف بدقة الألفاظ وحسن اختيارها وملاءمتها للمعنى المراد، والإتيان بالألفاظ الغامضة أحيانا، ويهتم بالمحسنات البديعية ويكثر من الطباق والجناس.

* * *

قال البحتري يمدح المتوكل ويصف البركة

أنشأ المتوكل حديقة للحيوانات الوحشية، وكانت البركة ضمن هذه الحديقة الواسعة كما كان أمام البركة قصر فخم للخليفة.

- ١ - ميلوا الى الدار من ليلى نحييها
 - ٢ - يا دمنة جاذبتها الريح بهجتها
 - ٣ - لازلت فى حلل للغيث ضافية
 - ٤ - إن البخيلة لم تنعم لسائلها
 - ٥ - مرت تأوّد فى قرب وفى بعد
 - ٦ - قد أطرق الغادة الحسناء مقتدرا
 - ٧ - يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها
 - ٨ - بحسبها أنها فى فضل ربتها
 - ٩ - ما بال دجلة كالغبرى تنافسها
 - ١٠ - أما رأيت كالىء الاسلام يكلوها
 - ١١ - كأن جنّ سليمان الذين ولوا
 - ١٢ - فلو تمر بها بلقيس عن عرض
 - ١٣ - تنصبّ فيها وفود للماء معجلة
 - ١٤ - كأنما الفضة البيضاء سائلة
 - ١٥ - إذا علتها الصبا أبدت لها حبا
 - ١٦ - فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
 - ١٧ - إذا النجوم تراءت فى جوانبها
 - ١٨ - لا يبلغ السمك المحصور غايتها
- نعم ونسألها عن بعض أهليها
تبست تنشرها طورا وتطويها^(١)
ينيرها البرق أحيانا ويسديها^(٢)
يوم الكثيب ولم تسمع لداعيها^(٣)
فالهجر يبعدها والدار تدنيها^(٤)
على الشباب فتصينى وأصبيها^(٥)
والآنسات إذا لاحت مغانيها^(٦)
تعدّ واحدة والبحر ثانيها
فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها^(٧)
من أن تعاب وبانى المجد يبنيتها^(٨)
إبداعها فادقوا فى معانيها
قالت هى الصرح تمثيلا وتشبيها^(٩)
كالخيل خارجة من حبل مجريها
من السبائك تجرى فى مجاويها^(١٠)
مثل الجواشن مصقولا حواشيها^(١١)
وريق الغيث أحيانا يباكيها^(١٢)
ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لبعد ما بين قاصيها ودانيها

- ١٩ - يعمن فيها بأوساط مجنحة
 ٢٠ - لهن صحن رحيب فى أسافلها
 ٢١ - صورا إلى صورة الدلفين يؤنسها
 ٢٢ - تغنى بساتينها القصوى برؤيتها
 ٢٣ - كأنها حين لجث فى تدفقها
 ٢٤ - وزادها زينة من بعد زينتها
 ٢٥ - محفوفة برياض لاتزال ترى
 ٢٦ - إن الخلافة لما اهتز منبرها
 ٢٧ - أبدى التواضع لما زانها رعة
 ٢٨ - إذا تجلت له الدنيا بحليتها
 ٢٩ - يا ابن الأباطح من أرض أباطحها
 ٣٠ - ما ضيع الله فى بدو ولا حضر
 ٣١ - بثثت فيها عطاء زاد فى عدد الد
 ٣٢ - أعطاكها الله عن حق رآك له
- كالطير تنقض فى جو خوافيها (١٣)
 إذا انحططن وبهو فى أعاليها (١٤)
 منه انزواء بعينيه يوازيها (١٥)
 عن السحائب منحلا عزاليها (١٦)
 يد الخليفة لما سال واديها
 أن اسمه حين يدعى من أساميها (١٧)
 ريش الطواويس تحكيه ويحكيها
 بجعفر أعطيت أقصى أمانها (١٨)
 منه ونالته فاختلفت به تيهها (١٩)
 رأت محاسنها الدنيا مساويها
 فى ذروة المجد أعلى من روابيها (٢٠)
 رعية أنت بالإحسان راعيها
 عليا ونوّهت باسم الجود تنويها (٢١)
 أهلا وأنت بحق الله تعطيها

* * *

- ١ - الدمنة آثار الدار .
- ٢ - ضافية طويلة متسعة، ينيرها من نار الثوب وأناره مدخيوطه عرضاً، أسداه مدخيوطه طولا .
- ٣ - الكثيب التل من الرمل .
- ٤ - تاود تتعطف وتتمايل .
- ٥ - الطرق الزيارة ليلا .
- ٦ - المغنى المنزل الذى غنى به أهله ويقصد المقاصير .
- ٧ - تباهيها تفاخرها .
- ٨ - يكلؤها يحفظها .
- ٩ - عن عرض من جانب، عن عرض على غفلة، بلقيس ملكة سبا باليمن، الصرح القصر الذى بناه سليمان .
- ١٠ - السبيكة القطعة المذوبة المفرغة فى القالب .
- ١١ - الصبا نسيم رقيق - الحبك الطرق المتكسرة، الجواشن الدروع جمع جوشن، المصقول المجلو، حواشيها جوانبها .
- ١٢ - الريق اليسير .
- ١٣ - الخوافى ريشات بعد القوادم التى فى أول الجناح - والمقصود وصف حركة الخوافى فى الجو .
- ١٤ - الصحن حوض أقيم فى أسفل البركة - البهو المكان الواسع .
- ١٥ - صور مائلات الواحدة صورا، الدلفين دابة بحرية تنجى الغريق، يشير الى تمثال الدلفين الذى كان مقاما على هذه البركة فى مواجهة الصحن، الانزواء الانقباض .
- ١٦ - تغنى تكتفى، عزاليها جمع عزلاء وهى مصب الماء من القرية ونحوها أى المطر المنهمر .

١٧ - كانت تدعى البركة الجعفرية نسبة الى جعفر المتوكل .

١٨ - اهتز منبرها أى اعتلاه هذا الخليفة .

١٩ - الرعة الورع .

٢٠ - الأباطح جمع الأبطح، وأبطح مكة مسيل واديها، أى من قریش الذين

ينزلون أباطح مكة .

٢١ - نوه به أشاد به وأظهره .

* * *

الشاعر البحتري

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد، ولد بمنج سنة ٢٠٤ وتوفي سنة ٢٨٤هـ، وهو شاعر عربي من أصل يمنى، وينتمى الى قبيلة طيء، والبحتري نسبة الى عشيرته بحتري وذهب في طفولته الى الكتاب فحفظ القرآن والشعر، ثم تردد على حلقات العلم في المساجد، وتعلم اللغة والنحو والفقه وعلم الكلام، وقال الشعر مبكرا وذاع صيته في ربوع الدولة العباسية.

وسافر البحتري في شبابه الى مدينة حلب، وتعرف على علوة، وكانت أمها مغنية، وظل يذكر علوة في شعره طوال حياته على الرغم من زواجها بغيره، ثم سافر الى حمص، وكان أبوتمام يقيم بها، وكان ذائع الصيت والشعراء يعرضون عليه نتائجهم، وعرض عليه البحتري أشعاره فأعجب بها أبو تمام ونصحه نصائح قيمة.

وقد أثرى البحتري ثراء عظيمًا لكثرة ما ناله من الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة نظير مدائح القيمة، ولكنه مع ذلك ظل يشكو الفقر وضيق العيش، وكان بخيلا رث الهيئة لا يعنى بمظهره، كما كان مغرورا ينشد شعره ويتمايل فخرا ويقول: (الله) وتزوج البحتري وأنجب.

واتصل البحتري بكبار رجال الدولة ومدحهم، ومن أشهر مدحويه الخليفة الواثق ثم الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، ونال جوائزهما وأثرى ثراء عظيمًا، وكان البحتري حاضرا في المجلس الذي قتل فيه الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان على يد الأتراك، وحزن لمقتلهما ورثاهما وهجا الأتراك وهجا الخليفة المنتصر الذي تولى الخلافة بعد مقتل والده الخليفة المتوكل وكان المنتصر متهما بالتآمر مع الأتراك على قتل والده، ولكن البحتري سافر الى الحجاز وحج، وعندما عاد الى بغداد مدح الخليفة المنتصر لينال عطاياه.

وكان البحتري من أعظم الوصاف في الشعر العربي، وشعره يعكس صورة للحضارة والترف في ذلك العصر، فقد وصف القصور والحداثق والبرك الصناعية

والنافورات وما الى ذلك، وسنرى فى القصيدة التى ندرسها صورة واضحة للبركة التى أنشأها الخليفة المتوكل.

والبحترى رائد مدرسة تجمع بين القديم والجديد وتقف موقفا وسطا تقرأ ما أثير عن العرب، وتقرأ ما ترجم عن اللغات الأجنبية وتمزج بينهما وتطبعه بالطابع العربى مع تلوينه بلون العصر الذى تعيش فيه، وقد حافظت هذه المدرسة على عمود الشعر العربى، ويقصد بعمود الشعر العربى تقاليد المتوارثة من المحافظة على الوزن والقافية، واختيار الألفاظ الفصيحة المناسبة التى تحقق الجمال الصوتى، وكذلك وضوح المعانى وعدم الابتذال أو التعقيد، والاهتمام بالصور الخيالية مع عدم الاسراف فيها، والاتيان بالمحسنات البديعية حين يتطلبها الموقف لإبراز المعنى بالتضاد أو لتوليد الموسيقى.

* * *

شرح القصيدة

١ - ٦ - بدأ الشاعر قصيدته ببكاء الأطلال وطلب من أصحابه أن يتوجهوا إلى دار المحبوبة لتحيتها واسترجاع الذكريات الغالية مع حبيبته، وهذا تقليد موروث عن الجاهليين، ولقد هم أيضاً في الحديث عن أثر الرمال التي تسقى التراب على بقايا الدار فتخفيها ثم تعود فتبدد التراب فتظهر معالمها، ثم دعا للدار بالسقيا وهو تقليد جاهلي أيضاً، ويدعو لها بالمطر الغامر الذي يتفجر البرق من خلاله، وراح الشاعر يجتر الذكريات مع حبيبته ووصفها بالبخل لأنها لم تنله ما يريد، وحدد يوماً لقيها فيه عند كثيب الرمل، وقد مرت أمامه بقوامها الجميل، وكانت قريبة من ناظره ولكنها بعيدة عنه بهجرها، وراح الشاعر يعزى نفسه ويستعيد أيام الشباب حيث كان يزور الغانيات فيستميلهن إليه ويستملنه إليهن.

٧ - ١٢ - ثم انتقل الشاعر إلى وصف البركة انتقلاً مفاجئاً وإن كان قد أجاد في وصف البركة التي أنشئت في حديقة الحيوان أمام قصر الخليفة المتوكل، ورسم الشاعر صورة كلية واضحة المعالم فيها الصوت واللون والحركة، وقد صور البركة والفتيات يجلسن حولها في مقاصيرهن سعيدات بحياتهن الناعمة، وفضل هذه البركة على البحر وجعل البحر تالياً لها في الرتبة ولتأكيد هذا التفوق جعل نهر دجلة يغار من البركة وينافسها، وفي خلال هذا الوصف والحديث عن تفوقها زج ببيت في مدح الخليفة المتوكل على عادة الشعراء في المزج بين المدح والوصف، وكأنه ينكر على دجلة هذه المنافسة مع أن الخليفة يرعاها ويوليها اهتمامه العظيم حتى لا يعلق بها نقص أو عيب، واستمر في الحديث عن تفوقها حتى إنها تشير الدهشة وتبعث على الظن بأن جن سليمان هم الذين بنوها وأبدعوا في بنائها، فلو مئرت بها بلقيس ملكة سبأ وألقت عليها نظرة عاجلة لحسبتها الصرح الذي بناه النبي سليمان وسخر الجن في بنائه ودعا بلقيس إلى دخوله فكشفت عن ساقها ظناً منها أنه لجة من الماء.

١٣ - ٢٢ - ثم ركز الشاعر في وصفه على معالم البركة ورسم لها صورة كلية

رائعة، جمعت بين الماء والنسيم الذى يداعب المياه، والشمس التى تضاحك هذه المياه والمطر الذى يمدها بقطراته، والنجوم التى تنعكس صورتها فى المياه والسماك الذى يعوم فى البركة، والحوض المبنى فى قاع البركة، وتمثال الدلفين المقام على البركة، وربط الشاعر بين كل هذه المشاهد برباط زاخر بالمشاعر، وأخرج صورة فيها الحياة والألوان البراقة، ونبالغ الشاعر حتى يبلغ بهذه المشاهد القمة، فالمياه تنصب متدفقة كأنها الخيل يرسلها مدربيها، وهذه المياه بيضاء كسبائك الفضة، وجعلها تجرى فى مجاريها لتستمر الحركة السريعة فى البركة، ومن الملامح الدقيقة التى صورها الباحثرى صورة تموجات المياه وتكسرها حين تداعبها النسائم فترسم فى صفحتها طرقاً متعرجة متموجة تلمع كأنها الدروع المصقولة، ولكى يبعث الحياة والعاطفة فى صورته جعل حاجب الشمس يغازل المياه فى البركة، وجعل الغيث يذرف دموعه فى البحيرة.

واستمر الباحثرى فى رسم الصورة الكلية داخل البركة وخارجها، فرأى صورة النجوم تنعكس على صفحة البركة فكان السماء ركبت فى هذه البركة، وهو تخيل لطيف، ولم ينس صورة السمك الذى يعيش فيها فوصف السمك وضم إلى الصورة تمثالاً للدلفين كان مقاماً على شط البركة، وتبدو الدقة فى وصف زعانف هذه الأسماك وهى تعوم وشبه هذه الزعانف بريشات الطيور التى تلى القوادم فى مقدمة الجناح ونص على الخوا فى لأن صورة الزعانف لا تماثل صورة القوادم، وإمعاناً فى الاحاطة بالمنظر وصف صحناً مقاماً فى أسفل البحيرة كما وصف سطح البحيرة واتساعه وشبهه بالبهو، وعقد علاقة عاطفية بين السمك وتمثال الدلفين وجعل السمك ينظر إليه معجباً بعينييه، وختم هذا الوصف الرائع مؤكداً عظمة البركة بأن البساتين تغنى بمنظر البركة عن السحائب الهائلة.

٢٣ - ٢٥ - واستغرق الشاعر باقى القصيدة فى مدح الخليفة المتوكل، وتدرج فى هذا الانتقال فجمع بين الوصف والمدح فى أبيات ثلاثة، وخصص الأبيات السبعة الأخيرة لمدح الخليفة منشىء البركة، وحين جمع بين الوصف

والمدح شبه سخاء البركة في تدفق مياهها بسخاء الخليفة حين يبسط يده للعطاء، وذكر أن هذه البركة تزداد جمالا وزينة حين يذكر اسمها مقرونا باسم الخليفة لأنها كانت تدعى البركة الجعفرية نسبة الى الخليفة جعفر المتوكل، ووصف الرياض التي تحيط بالبركة والتي تزدان بالورود فشبهها بريش الطواويس المعروفة بجمال ريشها.

٢٦- ٣٢- وفي مدح الخليفة هنا تحدث عن فرحة الخلافة حين اعتلى المتوكل منبرها ووصف الخليفة أخلاقه ومحاسنه وسخاءه ونسبه الشريف في قريش، وسعادة الرعية في ظلاله، وفي ذلك يقول: إن الخلافة نالت أقصى أمانيتها حين تولاها الخليفة المعتصم واختالت به، أما هو فقد أبدى تواضعا يليق بمقامه، وذكر أن الدنيا تتصاغر بمحاسنها حين ترى محاسن الخليفة، وكانت الخلافة العباسية تحتل هذه المكانة السامية لأنها تنتسب الى قريش قبيلة النبي عليه السلام ولذلك لم يغفل الشاعر النص على هذا النسب الشريف، وضم الى هذا الشرف سخاء وسعادة الرعية برعايته لها، وختم القصيدة بأن الله خوله هذه الخلافة لانه رآه أهلا لها، وأن الخليفة يؤدي حقوق الخلافة ملتزما بشرائع الله.

* * *

نقد القصيدة

٦-١- هذه القصيدة فى مدح الخليفة المتوكل ووصف البركة التى أنشأها فى حديقة الحيوان، ولكن الباحثرى بدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال وتحيتها وقد أسلفنا أن الوقوف على الأطلال تقليد موروث عن الجاهلية، وكان الشعراء يحنون الى الماضى العربى ويعيشون فيه بخيالهم، وذكرنا فيما سبق أن أبانواس ثار على هذا التقليد ولكن دعوته لم تنجح إلا فى حدود ضيقة، وإمعانا فى التقليد تحدث الشاعر عن الرياح التى تسفى التراب على الطلل، ووقف يناجى الدمنة ويدعو لها بالسقيا بالمطر الغزير الذى يتفجر البرق من خلاله، وكانوا يدعون بالسقيا لكل شىء حتى لتهمر الميت.

ثم تحدث عن الحبيبة البخيلة التى لم تسمع نداءه ولم تستمع لدعائه، والحقيقة أن البخل هنا مدح فى حقيقته وإن كان ذما فى ظاهره، فالحبيبة دائما مطلوبة متمنعة، وهذا دليل الترفع وغامل من عوامل جاذبيتها، ولم ينس الشاعر وصف جمالها وقوامها الى جانب تمنعها وهى قريبة منه، ثم راح يجتر ذكرياته ويذكر أيام الشباب حين كان يزور حبيبته وهو متملك مشاعرها مستميل لها، وكانت تجاوبه وتستميله وتملك عقله ومشاعره، وإطلاق اسم ليلى على المحبوبة لا يدل على أنه اسمها حقيقة فقد صارت ليلى رمزا لكثير من المحبوبات منذ ذاعت حكاية قيس وليلى فى العصر الأموى.

ونعم هنا لتأكيد تحية الدار لأنه قد يبدو غريبا أن يحيى الانسان دارا مهجورة، والفعل (ميلوا) أسلوب إنشائى أمر للتنبيه والحث، وفى البيت الثانى أسلوب نداء (يادمنة) للتودد والتحسّر، وفيه تشخيص للدار فهى استعارة مكنية، والفعلاّن تنشر وتطوى يصوران شدة الرياح التى تثير التراب فتغطى الدار مرة وتظهرها مرة أخرى، وهنا محسن بديعى طباق لإبراز المعنى بالتضاد، وفى البيت الثالث يدعو للدار بالسقيا ويمعن الشاعر فى تفصيل غزارة الأمطار فيجعلها حللا تغطى الدار ويصفها بأنها حلل ضافية أى طويلة سابعة، ولتأكيد

غزارة الأمطار يذكر أن البرق يتفجر منها ويرسل أضواءه طولاً وعرضاً، ويصدر البيت بقوله: (لازلت) ليفيد تمني دوام المطر الغزير.

وينتقل الشاعر إلى الحديث عن محبوبته وذكرياته معها ويصفها بالبخل ويؤكد ذلك (بأن) ثم يعطف الفعل (لم تسمع) على (لم تنعم) ليؤكد عدم نيل عطائها، والفعل (تاود) مضارع لاستحضار الصورة، ويكشف عن جمال قوامها، ويأتي بمحسن بديعي (فى قرب وفى بعد) وهو طباق لإبراز وضوح جمالها فى قربها وفى بعدها، وأتى بطباق آخر (يبعدا ويدنيها) ويبرز قرب دارها ومع ذلك لا ينال منها شيئاً، وفى شيء من التعويض النفسى عن الحرمان يذكر أيام شبابه وزيارته للحسناوات مقتدراً على ذلك مصيباً لهن، وأتى بالفعل (أطرق) ويكون ليلاً، لأن الليل فرصة العاشقين، والفعْلان (تصبينى وأصبيها) يفيدان قوة العاطفة بينهما وتمكن كل منهما من قلب الآخر.

٧- ١٢ - وانتقل الشاعر إلى وصف البركة انتقالاً مفاجئاً ولم يحسن التمهيد لهذا الانتقال، وفى هذه الأبيات الستة ركز على وصف عظمتها وتفوقها على غيرها، وأخر تفصيل مظاهر الجمال إلى الأبيات التالية، وإلى جانب وصف البركة بالحسن .

أضاف صورة الفتيات الجالسات فى المقاصير شاعرات بالسعادة، وأسلوب النداء (يامن رأى) يراد به التشويق لرؤية البركة، ويلجأ الباحث إلى المبالغة فيجعل البركة فى المرتبة الأولى والبحر تالياً لها، ثم يجعل دجلة تغار منها، وأكد تفوقها على البحر بأداة التوكيد (أن)، ثم أتى بأسلوب استفهام للتعجب (ما بال دجلة تنافسها؟) ومهد بهذا التعجب لمدح الخليفة وكأنه يقول: كيف تباها دجلة والخليفة يكلؤها؟

وقد بعث الباحث إلى المشاعر فى دجلة وفى البركة، والفعل المضارع (يكلؤها) لاستحضار الصورة والاستمرار.

واستمر الشاعر فى تصوير عظمة البركة إلى حد يفوق الخيال، وهنا تظهر

معلوماته التاريخية والدينية فيذكر الجن الذين سخرهم سليمان في بناء الصرح العظيم، ويظن من رأى البركة أن جن سليمان هم الذين أبدعوا، ويأتى بلفظي (إبداع وأدقوا) دليل التفوق، ومعلوم أن الجن لهم قدرة عظيمة، ولتأكيد هذا المعنى يذكر بلقيس التي وردت قصتها في القرآن الكريم، وإنها رأت صرح سليمان فحسبته ماء وكشفت عن ساقها، وهنا تشبيهه ضمنى، شبه البركة بقصر النبي سليمان الذى بناه الجن، ولأن البركة تخالف القصر فى الشكل احتاط فقال (عن عرض) أى من جانب أو على غرة، حتى يمكن هذا الحسبان الذى تحسبه بلقيس.

١٣ - ٢٢ - ويبدأ الشاعر وصفا دقيقا مفصلا للبركة، وقدرسم لها صورة واضحة جميلة وبعث فيها حياة وحركة وعاطفة، وبدأ برسم صورة للمياه المتدفقة فى البركة وشبه هذه المياه المتدفقة فى البركة بالخليل الخارجة من حبل مدربها، وأتى بالفاظ معبرة كما فى قوله: (تنصب) وهنا فعل مضارع لاستحضار الصورة ويوحى بالغزارة والتدفق، وكذلك (وفود، ومعجلة) والتشبيه بالخليل يوحى بالقوة، أما الماء فى البركة فقد شبهه بالفضة السائلة، وهنا يعطى الصفاء والقيمة الغالية، وأكد استمرار السرعة والغزارة بقوله: تجرى فى مجاريها، وتظهر النظرة الدقيقة الفاحصة فى تصوير التموجات التى تعلو صفحة المياه حين تمر النسائم، ولم ينس تصوير اللمعان والبريق فشبهها بالدروع المصقولة وهى صورة دقيقة رائعة.

ويعد أن رسم صورة واضحة للمياه أضاف الى الصورة الشمس والمطر والنجوم وعقد صلة عاطفية بين البركة والشمس والمطر فجعل الشمس تغازلها حين تشرق ويظهر حاجبها، غير أن الشاعر لم يوفق حين جعل المطر يباكيها، والبكاء نتيجة عاطفة حزينة مع أن الجو كله جمال وحب، وربما أراد الشاعر أن يأتى بطباق بين يضاحكها ويباكيها فلم يوفق، أما النجوم فرسم لها صورة مدهشة، فحين تظهر صورة النجوم على صفحة الماء يحسب الرائي أن السماء ركبت على سطح البركة، وهنا تشبيه تمثيلى شبه النجوم على صفحة الماء

بالنجوم على صفحة السماء، ثم عاد الشاعر الى البركة واصفا السمك الذى يعوم فيها وخصص له أربعة أبيات ورسم صورة دقيقة لا تنقصها العاطفة فالسمك يعوم فى البركة ولا يبلغ غايتها وهنا اتساع البركة وعظمتها وأتى بمحسن بديعى هو الطباق بين قاصيها ودانيها وأبدع الشاعر فى وصف حركة الزعانف فى الماء وصور السمك باسطة زعانفه وهو يعوم وشبه الزعانف بريشات الطيور الصغيرة التى تلى قوادم الطائر، وهنا تصوير للشكل والحركة، وهى استعارة تمثيلية شبه السمك يعوم فى الماء ويبسط زعانفه بالطير تنقض فى الهواء وتبسط أجنحتها ولم يترك الشاعر صورة الحوض الذى أقيم فى أسفل البركة وقابله باليهو الواسع ويقصد به أعلى البركة، ونرى الطباق بين أسافلها وأعاليها، ويقع صورة واحدة لاستكمال الصورة الكلية وهى صورة تمثال الدلفين الذى أقيم على هذه البركة فضوره وعقد صلة عاطفية بين السمك والدلفين وجعل السمك ينظر الى الدلفين مؤنساً به معجباً بعينييه الضيقتين، واهتم بالرنين الموسيقى فأورد الجناس بين صور وصورة والجناس تشابه الحروف فى الكلمتين مع اختلاف المعنى، وختم هذه الصورة بالحديث عن قيمتها فى الرى فذكر أن البساتين تغنى بها عن السحاب المطيرة.

٢٣ - ٢٥ - وقد أحسن الشاعر هنا الانتقال الى مدح الخليفة فأورد ثلاثة أبيات تجمع بين الوصف والمدح فشبه تدفق الماء فى البركة بتدفق العطاء من يد الخليفة، وأورد لفظين موحين بالغرض فذكر التدفق فى الماء، وذكر سال فى العطاء، وكانت البركة تدعى بركة الخليفة المتوكل فجعل انتسابها اليه زينة لها يزيدها جمالا فوق جمالها، وقبل أن يترك الوصف أضاف صورة الرياض التى تحيط بالبركة وتزينها الورود والأزاهير وشبهها بريش الطواويس المزدانة بالألوان الجميلة الزاهية.

٢٦ - ٣٢ - وتفرغ الشاعر لمدح الخليفة المتوكل وبدأ بتشخيص الخلافة وبعث فيها العاطفة والأمانى وجعلها تنال أقصى أمانيتها بتولى الخليفة المتوكل، وأكد ذلك بأداة التوكيد (إن) وأتى بالفعل الماضى (أعطيت) لتوكيد الحدث،

وأتى باسم التفضيل (أقصى) ليقول: إنها أعظم أمنية تمننتها الخلافة، ثم وصف الخليفة بصفات عديدة هي التواضع والورع والبهاء والروعة والشرف الرفيع والإحسان والسخاء، وحين وصفه بالتواضع والورع أثبت له التواضع بعد نبيله الخلافة لأنها منصب قد يبعث على التعالي، وأتى بطباق جميل فهو يتواضع والخلافة تمنحه به وتختال، وحين وصفه بالبهاء جعل الدنيا في حليتها تستصغر نفسها حين ترى بهاء الخليفة، وأتى بطباق بين محاسنها ومساوئها لإبراز المعنى بالتضاد، وحين تحدث عن أصله وكرم منبته نسبه إلى قريش في مكة المكرمة، ومعروف أن قبيلة قريش أشرف القبائل ومنها النبي ﷺ، وأتى الشاعر بأسلوب النداء (يا ابن الأباطح) وهو نداء للتعظيم، وذكر أنه في ذروة المجد وأتى باسم التفضيل (أعلى) وذكر أنه أعلى من جميع القمم، ثم وصفه بالإحسان، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا منتهى التقوى، وعطف (حضر على بدو) للشمول، ورعية نكرة في سياق النفي (ما ضيع) تفيد الشمول أيضاً، وهنا طباق بين بدو وحضر، واهتم بوصف الخليفة بالسخاء وهو من أهم الصفات اللازمة للخليفة، وأتى بالفعل (بثنت) وهو فعل ماض لتأكيد الحدوث ويوحى بالكثرة والانتشار، وأتى بالمفعول المطلق (نوهت تنويها) لتأكيد إظهار الجود، وختم القصيدة بأن المتوكل أحق الناس بالخلافة وأن الله هو الذي منحه هذه الخلافة، وأن الخليفة يعطى حق الله ويقوم بواجبات الخلافة، فأثبت له الفضل المطلق، وأثبت له رضا الله، وحب الرعية له وطاعتها.

خصائص أسلوب البحترى:

البحترى إمام مدرسة تجمع بين القديم والجديد، وهو يحافظ على التقاليد العربية ويقرأ الجديد ويتأمله ويطبعه بالطابع العربي ويلونه بلون عصره، وهو شاعر مثقف ولكنه لم يكثر من الإشارات العلمية أو التاريخية، ويهتم بوضوح المعنى مع عدم الابتذال أو التعقيد، ويحافظ البحترى على عمود الشعر العربي من الوزن والقافية واختيار الألفاظ الفصيحة المناسبة التي تحقق الجمال الصوتي، ويهتم بالصور الخيالية مع عدم الإسراف فيها أو التعقيد في تركيبها ويأتى بالمحسنات البديعية حين يتطلبها الموقف لإبراز المعنى بالتضاد أو لتوليد الموسيقى.

ابن الرومى يرثى ابنه

فجودا فقد أودى نظير كما عندى
فياعزة المهدي ويا حسرة المهدي
من القوم حبات القلوب على عمد
فلله كيف اختار واسطة العقد
وآتست من أفعاله آية الرشيد
بعيدا على قرب قريبا على بعد
واخلفت الآمال ما كان من وعد
فلم ينس عهد المهدي إذ ضم في اللحد
الى صفرة الجادى عن حمرة الورد
ويذوى كما يذوى القضيبي من الرند
تساقط در من نظام بلا عقد
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد؟
وأن المنايا دونه صمدت صمدى
وللرب إمضاء المشيعة لا العبد
ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
وليس على ظلم الحوادث من معدى
لذاكره ما حنت النيب فى نجد
فقدناه كان الفاجع البين الفقد
مكان أخيه فى جزوع ولا جلد
أو السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟
فياليت شعري كيف حالت به بعدى؟

بكاؤ كما يشفى وإن كان لا يجدى
بنى الذى أهدته كفاى للثرى
ألا قاتل الله المنايا ورمىها
توخى حمام الموت أوسط صبيتى
على حين شمت الخيز من لحاته
طواه الردى عنى فأضحى مزاره
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
لقد قل بين المهدي واللحد لبثه
ألح عليه الترف حتى أحاله
وظل على الأيدى تساقط نفسه
فيالك من نفس تساقط أنفسا
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
بودى أنى كنت قدمت قبله
ولكن ربى شاء قبل مشيئتي
وما سررنى أن بعته بثوابه
ولا بعته طوعا ولكن غصبته
وإنى وإن متعت بابنى بعده
وأولادنا مثل الجوارح أيها
لكل مكان لا يسد اختلاله
هل العين بعد السمع تكفى مكانه؟
لعمري لقد حالت بى الحال بعده

ثكلت سرورى كله إذ ثكلته
أريحانة العينين والأنف والحشا
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
أعيني إن لا تسعداني المكما
أقرة عيني قد أطلت بكاءها
أقرة عيني لو فدى الحى ميتا
كأنى ما استمتعت منك بنظرة
كأنى ما استمتعت منك بضمه
الأم لما أبدى عليك من الأسى
محمد ما شئ توههم سلوة
أرى أخويك الباقين فإنما
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا
فما فيهما لى سلوة بل حرازة
وأنت وإن أفردت فى دار وحشة
أود إذا ما الموت أو فد معشرا
ومن كان يستهدى حبيبا هدية

وأصبحت فى لذات عيش أخازهد
ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى؟
وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
وإن تسعداني اليوم تستوجبا حمدى
وغادرتها أقذى من الأعين الرمد
فديتك بالحبوباء أول من يفدى
ولا قبلة أحلى مذاقا من الشهد
ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
وإنى لأخفى منه أضعاف ما أبدى
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
يكونان للأحزان أورى من الزند
فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد
يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى
فإنى بدار الأنس فى وحشة الفرد
إلى عسكر الأموات أنى من الوفد
فطيف خيال منك فى النوم استهدى

* * *

ابن الرومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جريح الرومى، ينتسب أبوه الى الروم، أما أمه فمن أصل فارسى، ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد، ولا نعرف تفاصيل حياته الأولى، وتوسم أبوه فيه الذكاء وهو صغير، وفقد ابن الرومى أباه قبل أن يبلغ الرجولة، وتردد ابن الرومى على مؤدى عصره، ونشأ عالماً باللغة والتاريخ وكان يعرف بعض المفردات اليونانية والفارسية ويوردها فى شعره.

ونبغ ابن الرومى فى الشعر حتى صار واحداً من أعظم شعراء العربية، وامتناز بطول القصائد وعمق الخيال وروعة التصوير، وكان بارعاً فى تصوير الشكل الخارجى، كما كان بارعاً فى تجسيم المعنويات وإبرازها أمام أعيننا، وبرع فى الهجاء وتجسيم العيوب الجسمية والنفسية، كما برع فى المدح وفى وصف الطبيعة، واقتبس من الطبيعة فى كل أغراض الشعر وامتزج بها وأحبها بجميع جوارحه وأحاسيسه.

وعرف ابن الرومى البحترى وعاشا فى زمان واحد، وكان ابن الرومى متشائماً الى أبعد الحدود، وربما مكث فى بيته أياماً لا يغادره إذا رأى منظراً لا يعجبه، أو سمع اسماً يتطير منه، وكان ضعيف البنية ولكنه كان منهُوماً يقبل على الطعام بشراهة، وتزوج ابن الرومى ورزق ثلاثة أولاد ذكور، ومات أوسطهم فرثاه ابن الرومى بقصيدة تعد أروع قصائد الرثاء فى الشعر العربى، وسندرسها هذا العام، ومات ابن الرومى سنة ٢٨٣ - أو ٢٨٤، وقيل إنه مات مسموماً بسبب هجائه بعض الكبراء.

شرح قصيدة ابن الرومى :

هذه القصيدة فى الرثاء قالها ابن الرومى فى رثاء ابنه الأوسط حين اختطفه الموت، وأرى أن هذه القصيدة أصدق قصائد الرثاء فى الشعر العربى، وأرى أيضاً أن شعر الرثاء فى مجمله حافل بالمبالغات والمجاملات، والحزن الشديد يشتمل الفكر ويعقد اللسان فلا يستطيع الشاعر أن يعبر عن مشاعره الدفينة فى صدق

وبراعة، فيلجأ الشاعر الى المبالغات السخيفة ويتعجب كيف لم تنطبق السماء على الأرض؟، وكيف عاودت الشمس طلوعها؟، أو يدعى أنهم شيعوا الشمس ودفنوا القمر، أما ابن الرومي فقد عبر عن إحساس صادق خال من المبالغة، وأقنعنا بادعاءاته إقناعاً ممزوجاً بالعاطفة .

وتبدأ القصيدة ببيت غاية فى الصدق والروعة :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى فجدودا فقد أودى نظير كما عندى
يخاطب الشاعر عينيه طالبا منهما أن يجودا بالدموع، ومن المعروف علميا وشعبيا أن البكاء يخفف آلام الحزين، ومن المعروف أيضا أن البكاء لا يعيد ما فات ولا يرد الميت، ويلجأ ابن الرومي على عينيه فى طلب الدموع فيقول مخاطبا إياهما : فجدودا فقد أودى نظير كما عندى، ولو خيرت إنسانا بين ابنه وعينه لوقف حائرا، أيهما يختار؟ لأنهما فى منزلة واحدة، فالببيت كله غاية فى الصدق الفنى والواقعى ، أما أنه يطلب من عينيه سفع الدموع فلأن الحزن قد يصيب العين بالجمود ولا تسيل دموعها، والدموع تريخ الإنسان ثم يقول :

بنى الذى أهدته كفاى للثرى فياعزة المهدي ويا حسر المهدي
ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد

ثم يبرز الشاعر الفاجعة ويصورها وقد حمل الشاعر ابنه بين يديه وقدمه هدية الى التراب وعاد صفر اليدين منه، وهذا أقسى المواقف واللحظات، ويصرخ الشاعر متحسرا ولا يجد حيلة إلا أن يدعو على المنايا لأنها ترمى أبناءنا وحبات قلوبنا متعمدة حرماننا أعز ما نملك .

ويتحدث عن ابنه الذى اختطفه الموت فيقول :

توخى حمام الموت أوسط صبيتى	فلله كيف اختار واسطة العقد؟
على حين شمت الخير من لحاته	وآنست من أفعاله آية الرشيد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره	بعيدا على قرب قريبا على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهدي واللمحد لبثه	فلم ينس عهد المهدي إذ ضم فى اللحد

يقول : إن الموت قصد أوسط أبنائي ، ويتعجب كيف اختار أوسطهم؟ وعبر عنه بواسطة العقد ، وبواسطة العقد هي الجوهرة الكبرى التي تكون في وسط العقد وتكون أئمن الجواهر، وطبيعي أن يحس الأب بأن الابن الذي فقده أحبه إليه لأنه الفقيد الذي غربت شمس، ويظهر هنا أن الابن الفقيد قد شب وظهرت ملامح ذكائه ورشده، وجاوز مرحلة الطفولة الأولى، ويتحدث عن طي الردى له فكأنه كان شيئا جميلا يسعد لمرآه طواه الموت وأخفاه عنه، ويأتي بطباق رائع فهو بعيد عن عينه ولكنه قريب منه في قلبه، وهو ساكن في قلبه ولكنه بعيد عنه لا يراه، ثم ينظر نظرة إنسانية ويرى الموت ينذر جميع الناس بطيهم، ولكن الآمال تزين للناس حياتهم، وقد أنجز الموت وعيده، وأخلفت الآمال وعددها بأن يكبر الولد. ويصير سندا لأبيه، ويحس الأب بأن الابن لم يمكث في الحياة إلا قليلا قبل أن يدرج في الكفن، ومن المعروف أن لحظات السعادة تمر سريعا، وأن الشاغل يحس بأن الفقيد لم يلبث بجانبه إلا قليلا.

وفي براعة فائقة وصف ابن الرومي كيف مات ابنه، وكان قد مات من النزف واستطاع الشاعر أن يصور اللحظات التي تسلك فيها الموت إلى ابنه، ووصف الألوان وخروج الروح والتحول البطيء من الحياة إلى الموت حيث يقول :

البح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه ويذوى كما يذوى القضيبي من الرند
فيالك من نفس تساقط أنفسا تساقط در من نظام بلا عقد

فقد ظل الغلام ينزف دمه قطرة قطرة وهو يتحول من اللون الأحمر إلى الصفرة الباهتة، والجادى الزعفران، أما الورد فمعروف، وهنا تصوير قدير على تحول اللون من الحيوية إلى الذبول، وظلت نفسه تتساقط لأن كل قطرة دم جزء من حياته، وأتى بتشبيه رائع حيث شبه تساقط قطرات الدم بتساقط الدر من سلك وإن كان غير مكتمل كالعقد، ولم يغفل ابن الرومي تصوير الأب والأم يحملان الطفل على أيديهم والموت يسرى في أعماقه ليبرز مدى الحسرة التي يعانها الوالدان وهما عاجزان عن أن يفعلوا شيئا، وكما شبه اللونين في حالة

الحمرة والصفرة شبه الحيوية والذبول، فشبهه بقضيب من الرند وهو يذوى شيئا فشيئا، والرند نبات طيب الرائحة، وكلنا يتخيل النبات وهو يذوى حتى يصير هشما خاليا من النظرة والحيوية.

ثم ينتقل الشاعر الى وصف حالته وهو يرى ابنه يخطو الى الموت حيث يقول:

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنه أقسى من الحجر الصلد؟
بودى أنى كنت قدمت قبله وأن المنايا دونه صمدت صمدى
ولكن ربى شاء قبل مشيئتي وللرب إمضاء المشيئة لا العبد
يتعجب الشاعر كيف لم ينشق قلبه لشدة الأسى وإن كان قلبه قوى التحمل كالحجر الصلد ولكنه يحس بالموقف الأليم الذى تتشقق له الحجارة، ثم يتمنى الشاعر صادقا أنه مات قبل ابنه وأن الموت قصد اليه وتخلي عن ابنه، ولكنها أمنية لا يستطيع تحقيقها فالله وحده هو الذى يقدر وينفذ، ويأتى هنا بحكمة صادقة (وللرب إمضاء المشيئة لا العبد).
ومن التعبيرات الصريحة الصادقة قوله:

وما سررنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معدى
والصراحة الصادقة هنا إعلانه أنه لا يسره أن يبيع ابنه بثواب الله وإن كان الثواب جنة الخلد، ولا صراحة أصدق من هذا، فالصبر على الفقد جزاؤه الجنة والجنة أمنية كل إنسان، ولكنك لو خيرت شخصا فى أن يموت ابنه وينال الجنة لما رضى إلا فى مواقف الوطنية الجارفة عند صادقى الإيمان، ويؤكد موقفه بأن ابنه اغتصبه الموت اغتصابا، ولا معين على حوادث الدهر.
ومن الصدق الواقعى والفنى حديثه عن ابنه الباقيين حيث يقول:

وإني وإن متعت بابنّي بعده لذاكره ما حنت النيب في نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه؟ أو السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

قد يقول قائل : أليست لك متعة في ابنك الباقيين؟ ألا يغنيانك عن ابنك
الراحل؟ ويجيب ابن الرومي : أن في ابنيه الباقيين متعة له، ولكنهما لا يغنيان عن
الابن الراحل، وهذا حق، فهو يذكره ويحن إليه كما تحن الناقة الى ولدها، ويلجأ
ابن الرومي الى الاقتناع ولكنه ليس إقناعاً جافاً، ولكنه إقناع عاطفي مستقى من
الواقع الملموس، وهنا يشبه الأولاد بالجوارح إذا فقد الإنسان جارحة لا يسد مكانها
جارحة أخرى، وهذا حق، ثم يخص حديثه بالسمع والعين لا يسد أحدهما مسد
الآخر، وهنا لا يبقى شك في أن أبنيه الباقيين لا يسدان مسد ابنه الفقيد .

ويربط ابن الرومي بينه وبين ابنه فيقول :

لعمري لقد حالت بي الحال بعده فباليت شعري كيف حالت به بعدى؟
ثكلت سروري كله إذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي أخازهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدى؟
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
أعيني إلا تسعداني المكما وإن تسعداني اليوم تستوجبا حمدي

يقسم الشاعر ويتمنى، يقسم على أنه تغير كلية بعد موت ابنه، ويتمنى
أن يعلم كيف أصبح ابنه الآن بعد بعده عن أبيه؟ فهو مازال يفكر في ابنه
ويحمل همه، ويريد أن يطمئن على أحواله، ثم يؤكد أنه فقد سروره كله
وأصبح زاهدا في لذات الحياة لا يغريه بريق المتع الدنيوية، ثم يخاطب ابنه بقوله :
أريحانة العينين والأنف والحشا، فهو متعة لعينه ولأنفه يراه ويشمه ويستمتع به،
وقد وصف ابن الرومي الطبيعة في إحدى قصائده بقوله :

ريحتها ريح طيب الأولاد

ريحها ريح طيب الأولاد

وهو كذلك يستمتع بابنه في أعماقه حينما كان يتحرك أمامه، ويعلن أنه سيبيكية ما جادت عيناه بالدموع وإن كان يعلم أن الدموع لا تجدى ولكنه يستجدي عينيه أن تسعداه بالدموع وإلا فإنهما يستحقان لومه.

ثم يتوجه إلى ابنه مخاطبا إياه شارحا حاله وآلامه:

أقرة عيني قد أطلبت بكاءها وغادرتها أقذى من العين الرمد
أقرة عيني لوفدى الحى ميتا فديتك بالحبوباء أول من يفدى
كأنى ما استمتعت منك بنظرة ولا قبلة أحلى مذاقا من الشهد
كأنى ما استمتعت منك بضممة ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
الام لما أبدى عليك من الأسى وإنى لأخفى منه أضعاف ما أبدى

ينادى الشاعر ابنه آملا أن يصل صوته إليه لأنه قررة عينه أى إنه يسعد عينه ويجعلها تفر وتستريح، ولكنه الآن قد أطل بكاء عينه حتى صارت كالعين المصابة بالرمد المملوءة بالقذى، ويعلن أنه لو أمكن الفداء لكان أول من يفدى ابنه بنفسه، ويكشف عن تلهفه على ابنه وإحساسه بلوعة الحرمان كأنه ما استمتع منه بنظرة ولا قبلة ولا ضمة ولا شمة، ويرفض اللوم الموجه إليه لشدة ما يظهره من الأسى، ويعلن أنه يخفى فى أعماقه أضعاف ما يبدي، والحقيقة أن هذا اللوم ليس لوما بالمعنى المفهوم ولكنه محاولة من الأصدقاء لتسكين نفسه والتخفيف من أحزانه.

وقد سبق أن أكد ابن الرومى أن ابنه الباقيين لا يسدان مسد ابنه الفقيد، وهنا يؤكد أن الأمر لا يتوقف عند هذا، بل إنهما يهيجان أحزان الأب ويشعلان النار فى قلبه حين يراهما ولا يراه. يقول:

محمد ما شئ توهم سلوة لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين فإثما يكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعبا فى ملعب لك لذعا فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لى سلوة بل حزازة يهيجانها دونى وأشقى بها وخدى

الناس يتوهمون أن روية الولدين الباقيين سلوة لابييهما، ولكنهما فى الحقيقة يزيدان وجده كما يقول، فهما يشعلان النار فى قلبه كما يشعل الزند النار، والزند العود الذى يقدح به النار، بل هما أشد إشعالا للنار فى قلبه، وعلل لذلك بأنهما حين يلعبان فى ملعب منفردين يذكرانه بابتنه الذى اختطفه الموت، فهما يسببان له الحزن والألم عن غير ما قصد، فهما يهيجان أحزانه ويتركانه يشقى بهذه الأحزان وحده .

وفى آخر القصيدة يعبر عن شعوره بالوحدة والوحشة ورغبته فى أن يساق الى الموت كلما رأى الموتى الراحلين الى الدار الآخرة فيقول :

وأنت وإن أفردت فى دار وحشة فإنى بدار الأنس فى وحشة الفرد
أود إذا ما الموت أوفد معشرا إلى عسكر الأموات أنى من الوفد
ومن كان يستهدى حبيبا هدية فطيف خيال منك فى النوم أستهدى

ويختم القصيدة بأن يطلب من ابنه الحبيب هدية غالية هى طيف خيال يلم به فى منامه لعله يسكن لواعجه ويخفف آلامه .

نقد القصيدة :

يقسم النقاد شعر الرثاء لثلاثة أقسام : نذب وتأبين وعزاء، أما النذب فالبكاء على الميت، أما التأبين فالإشادة بالميت وإظهار مآثره، أما العزاء فالخروج إلى أفق إنسانى رحب والتأمل فى الحياة وفى الموت وفى أسرار الكون . وليس هناك حد فاصل بين الثلاثة، بين ملامح كل لون، ولكننا نضع القصيدة فى قسم من الأقسام الثلاثة بحسب السمة الغالبة عليها، وقصيدة ابن الرومى هذه تجمع بين النذب والعزاء لأنه يبكى ويتفجع، ثم إنه يتأمل فى الحياة والموت والبكاء وأثره وإهداء الأحباب الى التراب وتحول الإنسان بعد الموت، وتحول الشاكل الى الوحدة والزهد

لشدة الحزن، الى آخر هذه المعاني التي تمس أعماق الإنسانية وتصور مشاعرها،
أما التأبين فلا نراه إلا في إشارة عاجلة كما في قوله :
على حين شمت الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد
لان الفقيد مازال طفلا لم تظهر دلائل تفوقه .

في مطلع القصيدة يشخص الشاعر عينيه ويخاطبهما وكأنه يمتن نفسه بان
يسمعا خطابه ويعيناه بالدموع، والفعل جودا أمر للرجاء والاستعطاف، وفي
السطر الأول مقابلة لان البكاء يشفى النفس وإن كان لا ينفع في إعادة ما ذهب،
وأكد مكانة ابنه الفقيد وأنه نظير عينيه، وقد الداخلة على الفعل الماضى تفيد
التأكيد، وفي البيت الثانى ذكر ابنه مصغرا (بنى) لبيان أنه مازال صغيرا لم
ينمتع بالحياة، وأهدته توحى بقيمة ما قدمه للتراب لأن الهدية تكون شيئا
ثميناً، ألا للتنبيه على شىء مهم، قاتل أسلوب خبرى لفظاً لإنشائي معنى، والمراد
الدعاء على المنايا بأن يقاتلها الله، وعلل لهذا الدعاء بأنها ترمى حبات القلوب
عمداً، وهنا تشخيص للمنايا وكأنها جيوش الأعداء .

وفي البيت الرابع أسلوب تعجب، وفيه استعارة تمثيلية حيث شبه ابنه
محمداً أوسط إخوته بحبة الجواهر العظمى بين سائر الحبات، ويأتى الشاعر
بالحسنات البديعية بعيداً عن التكلف مثل المقابلة في قوله: بعيداً على قرب قريباً
على بعد، وفي البيت السابع مقابلة بين الشطرين: أنجزت تقابل أخلفت، والمنايا
تقابل الآمال، والوعيد يقابل الوعد، وتأتى هذه المقابلة كاشفة مدى الفاجعة
والفرق بين الواقع وما كان متوقعا، وأكد بقدره وبالفعل الماضى أنجز وأخلف .

والشاعر قدير على اختيار الألفاظ الموحية كما في قوله: ألح عليه النزف،
والفعل يوحى باستمرار النزف والإلحاح يكون فى شىء بغيبض، وحتى تفيد
الغاية، وكذلك الفعل ظل يفيد الاستمرار، ومن مظاهر القدرة على تصوير
الألوان والحالات قوله: أحاله الى صفرة الجادى عن حمرة الورد، وفيها اللون
الأحمر الذى يصور حالة الصحة والحيوية، واللون الأصفر الذى يصور الذبول

والضعف، وكذلك قوله: ويدوى كما يدوى القضيبي من الرند، ويصور التحول التدريجي وهو تحول ملحوظ أمامنا وإن كنا لا ندرك مراحل التحول بوضوح، ولكنها صورة مستقرة في أذهاننا وأخيلتنا، والصور البلاغية كثيرة ومنها تشبيه ابنه في حالتيه بالورد والجادي، وتشبيهه بالقضيبي من الرند، ولا ننسى أن ابن الرومي عاشق للطبيعة يستمد منها صوره وهنا الجادي والورد والرند.

ومن الأساليب الإنشائية قوله: فيالك من نفس تساقط أنفسا، وهو أسلوب تعجب بيا، ومن المعاني الدقيقة أنه جعل نفس الطفل تتساقط مع قطرات الدم، وشبه قطرات الدم بالدرا لبيان قيمتها فهي سر الحياة، ووجه الشبه دقيق فقدرات الدم تشبه الدرا في الحجم وفي التساوي وفي النفاسة، وجعل الدرا في سلك ونفى أن يكون عقدا لأن العقد مربوط يحول دون سقوط حبات الدرا.

وفي البيت الثالث عشر يقول: بودي أني كنت قدمت قبله، والفعل قدمت مبنى للمجهول لأن الإنسان يقدم للموت رغم إرادته، ثم يأتي بأداة الاستدراك لكن وتفيد أن ما بعدها مخالف لما قبلها، ويأتي بحكمة صادقة (ولله إمضاء المشيئة لا العبد) وهو أسلوب قصر أداته التقديم حيث قدم الخبر والمبتدأ معرفة فافاد قصر إمضاء المشيئة على الرب، وتعجبنى صراحته في قوله: (وما سرنى أن بعته بشوابه) ولا نتهم ابن الرومي بضعف الإيمان، وإنما هي الحقيقة الكامنة في نفس الإنسان يؤمن بالشواب والعقاب ولكنه يجن عند التنفيذ.

وفي البيت الرابع عشر نرى جملة اعتراضية هي: (وإن متعت بابني بعده) لدفع إيهام أنه يذكر ابنه ولا يتمتع بابنيه الباقين، أما حنين الناقة في نجد فهو تقليد موروث ومن المعروف أن الناقة تحن إلى ولدها حنينا شديدا.

ولا يقتصر ابن الرومي على التأثير العاطفي وإنما يلجأ أيضا إلى المنطق والاقناع العقلي ولكنه ليس إقناعا جافا، وهنا يشبه الأولاد بالجوارح، ومعلوم أن الجوارح كالعين والأذن عزيزة على الإنسان فتشبيه الأولاد بها يبرز مدى إعزازنا لهم وحزننا لفقدهم، وقد يقول قائل: إن الابن الباقي يسد مسد الذاهب، فنفي ابن الرومي ذلك وأكد رأيته بأن العين لا تغنى عن الأذن، والأذن لا تغنى عن العين، وأتى بأسلوب الاستفهام وهو يفيد النفي.

وفى البيت الحادى والعشرين يأتى بثلاثة أساليب إنشائية: الأول لعمرى
لقد حالت.. وهو أسلوب قسم لتأكيد تحول حاله، ويأتى بأداة التوكيد قد،
وبالفعل الماضى حالت، والأسلوب الثانى (ليست شعرى) وهو أسلوب تمن
للتحسر، والأسلوب الثالث (كيف حالت به بعدى) وهو أسلوب استفهام،
والشكل فقد فقوله: (ثكلت سرورى) يصور السرور وقد مات وانتهى، ويؤكد
ذلك بقوله (كله)، ويذكر أنه زهد فى جميع لذات الحياة.

وينادى الشاعر ابنه بقوله: أريحانة العينين والأنف والحشا، وهنا تفصيل
دقيق لمشاعره، فهو يسعد عينيه حين ينظر إليه، ويسعد أنفه حين يشمه، ويسعد
نفسه وهو يحتضنه، وقد عبر ابن الرومى عن سعادته حين يشم ابنه حين قال فى
وصف الطبيعة: (ريحتها ريح طيب الأولاد).

وأسلوب النداء هنا للتودد، وفى الشطر الثانى أسلوبان إنشائيان، ليت
للتمنى والتحسر، وهل أداة استفهام يوحى بالحيرة والتحسر أيضا، ويعلن ابن
الرومى أنه سيواصل البكاء ما وجد دموعا، والسين للتأكيد.

ثم ينادى ابنه فى بيتين متتاليين، وفى النداء تودد وحسرة، ولو حرف
امتناع لامتناع تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، فقد امتنع من فداء ابنه بنفسه
لامتناع أن يفدى حى ميتا، وفى إظهار تحسره يجمع بين النظرة والقبلة، ويجمع
بين الضمة والشمة لأنه ينظر الى ابنه فيعجب به ويقبله، وحين يضمه يشم
رائحته ويسعد بها، وفى البيت الثلاثين مقابلة بين الشطرين لما يظهر وما يخفى.

وفى البيت الحادى والثلاثين أسلوب نداء للتودد، وشيء نكرة فى سياق
النفى تفيد التعميم، والفعل أرى لاستحضار الصورة، وقوله: (فإنما يكونان
للأحزان أورى من الزند) أسلوب قصير أدواته إنما لقصير أثر الرؤية على إثارة
الأحزان، وأورى اسم تفضيل لبيان شدة إثارة الأحزان فى قلبه، والفعل لدع
مضعف والتضعيف يفيد الكثرة، وتشبيه الأحزان بالنار لإبراز المعنى فى صورة
محسوسة تجسم الآلام، واحترس الشاعر بقوله (عن غير ما قصد) لنفى تعمد
إثارة الأحزان، ومن المؤلم أن يثير الوجدان الأحزان ويشقى بها الأب وحده.

وحين يعبر عن وحشته يذكر أنه بدار الأنس فى وحشة الفرد، ووضع الأنس بجانب الوحشة يبرز الغرابة وقسوة الأحداث، وفى قوله: الموت أوفد معشرا تجسيم وتشخيص للموت، وفى نهاية القصيدة يعلن أن غاية مناه أن يرى طيف ابنه فى المنام.

وهذه القصيدة لابن الرومى من الشعر الوجدانى الذى يعبر عن الاحساس العميقة ويجمع بين التأثير العاطفى والإقناع العقلى، وتمتص هذه القصيدة بوحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى، فالموضوع واحد هو رثاء ابنه الحبيب، والجو النفسى المسيطر على القصيدة جو الحزن والكآبة والشعور بالوحشة وتمنى الموت للخلاص من هذه الحياة المؤلمة وتبدو فى القصيدة سمات شعر ابن الرومى من التشخيص والتجسيم والتحليل وتقليب المعنى على وجوهه والاقتباس من الطبيعة.

* * *

المتنبى يعاتب سيف الدولة الحمدانى ويمدحه

- ١ - واحرّ قلباه ممن قلبه شبيب
 - ٢ - مالى اكتم حبا قد برى جسدى
 - ٣ - إن كان يجمعنا خب لغرتة
 - ٤ - قد زرتة وسيوف الهند مغمدة
 - ٥ - فكان أحسن خلق الله كلهم
 - ٦ - فوت العدو الذى يعمته ظفر
 - ٧ - قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
 - ٨ - ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها
 - ٩ - اكلمنا رمت جيشا فانشنى هربا
 - ١٠ - عليك هزمهم فى كل معترك
 - ١١ - أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
 - ١٢ - يا أعدل الناس إلا فى معاملتى
 - ١٣ - أعيذها نظرات منك ثاقبة
 - ١٤ - وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
 - ١٥ - أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى
 - ١٦ - أنام ملء جفونى عن شواردها
 - ١٧ - وجاهل مده فى جهله ضحكى
 - ١٨ - إذا رأيت نيوب الليث بارزة
 - ١٩ - ومهجة مهجتى من هم صاحبها
 - ٢٠ - رجلاه فى الركض رجل واليدان يد
 - ٢١ - ومرهف سرت بين الجحفلين به
- ومن بجسمى وحالى عنده سقم
وتدعى حب سيف الدولة الأمم؟
فليت أنا بقدر الحب نقتسم
وقد نظرت إليه والسيوف دم
وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم
فى طيّبه أسف فى طيّبه نعم
لك المهابة ما لا تصنع البهم
ألا توارىهم أرض ولا علم
تصرفت بك فى آثاره الهمم؟
وما عليك بهم عار إذا انهزموا
تصافحت فيه بيض الهند واللمم؟
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
إذا استوت عنده الأنوار والظلم؟
وأسمعت كلماتى من به صمم
ويسهر الخلق جراها ويختصم
حتى أتته يد فراسة وفم
فلا تظن أن الليث مبتسم
أدركتها بجواد ظهره حرم
وفعله ما تريد الكف والقدم
حتى ضربت وموج الموت يلتطم

والسيف والرمح والقرطاس والقلم
حتى تعجب منى القور والأكم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
لو أن أمركم من أمرنا أم
فما لجرح إذا أرضاكم ألم
إن المعارف في أهل النهى ذم
ويكره الله ما تأتون والكرم
أنا الثريا وذان الشيب والهزم
يزيلهن إلى من عنده الدائم
لا تستقل بها الوخادة الرسم
ليحدثن لمن ودعنهم ندم
ألا تفارقهم فالراجلون هم
وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
شهب البزاة سواء فنيه والرخم
تجوز عندك لا عرب ولا عجم
قد ضمن الدر إلا أنه كلم

٢٢ - فالخيل والليل والبيداء تعرفني
٢٣ - صحبت في الفلوات الوحش منفردا
٢٤ - يا من يعز علينا أن نفارقهم
٢٥ - ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
٢٦ - إن كان سرکم ما قال حاسدنا
٢٧ - وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
٢٨ - كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
٢٩ - ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
٣٠ - ليت الغمام الذي عندي صواعقه
٣١ - أرى النوى تقتضيني كل مرحلة
٣٢ - لمن تركن ضميرا عن ميامنا
٣٣ - إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
٣٤ - شر البلاد بلاد لا صديق بها
٣٥ - وشر ما قنصته راحتى قنص
٣٦ - بأى لفظ يقول الشعر زعنفه
٣٧ - هذا عتابك إلا أنه مقه

* * *

حياة المتنبي

هو أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ، ولحظ أبوه فيه مخايل الذكاء فالجقه بإحدى المدارس العلوية فاتصل بتعاليم الشيعة، ولما نهب القرامطة الكوفة سنة ٣١٢هـ انتقل به أبوه إلى بادية السماوة وظل بها عامين أتاحا له أن ينهل من ينابيع اللغة، ثم عاد إلى الكوفة مع أبيه وقد تفتحت ملكته الشعرية، ودرس الفلسفة، وظهرت فيه نزعة إلى التشاؤم والثورة على الدهر والناس، ثم ترك الكوفة إلى بغداد سنة ٣١٦هـ ثم ارتحل إلى الشام فمدح بعض الأشراف، وظهرت حركة القرامطة فانضم إليها، ودعا إلى نفسه وأراد أن يستولى على حمص، ولكن ثورته لم تنجح، وقبض عليه لأولاً وإلى حمص وزج به في السجن سنة ٣٢٢هـ وظل به عامين وأشيع أنه ادعى النبوة ولقب بالمتنبي، والحقيقة أنه لم يدع النبوة، وإنما هي تهمة ألصقتها به لأولاً ليثير الخلافة والناس ضده.

وتعرف المتنبي على بدر بن عمار وإلى دمشق، ووجد عنده ما كان يأمله من عطاء، كما وجد فيه الأمير العربي، وكان المتنبي عربياً متعصباً للعرب ساخطاً على الولاة الأعاجم ومدح المتنبي بدر بن عمار، ثم تعرف على سيف الدولة الحمداني الأمير العربي، ولقيه في سنة ٣٣٧هـ، ووجد عنده ما كان يأمله من عطاء ومن عزة وشجاعة وتقدير لشعره، وعاش معه نحو تسع سنوات، وحضر معاركه ضد الروم وشاركه أفراحه وآلامه، ومدائح فيه تعد في الذروة من شعر المتنبي ومن الشعر العربي عامة.

إلا أن المتنبي كان شديد الاعتزاز بنفسه، وكان كثير الفخر وكان يطعن على غيره من الشعراء فأثار الشعراء والعلماء ضده، وعلى رأسهم أبو فراس وابن جني وابن خالوية، كما أن سيف الدولة ضاق بغروره المفرط مع شدة إعجابه بشعره، فعزم المتنبي على الرحيل، وأنشد قصيدته التي ندرسها أمام سيف الدولة وفيها إنذار بالرحيل، ولم يتحرك سيف الدولة لمنعه من الرحيل.

وقصد المتنبي مصر وكان يحكمها أونوجور بن الإخشيد وكان في الرابعة عشرة من عمره فكانت السيطرة الفعلية لكافور الإخشيد وهو عبد حبشي اشتراه الإخشيد ورباه ووصل إلى أعلى المراتب، ومع سخط المتنبي على الأعاجم

فقد اضطر الى مدح كافور، ووعده كافور بولاية ولكنه لم يف بوعده فهجاه،
المتنبى هجاء مرا وهرب من مصر.

واتجه المتنبى الى الكوفة ثم بغداد ثم الى فارس، وفي الطريق خرج عليه
بعض قطاع الطرق، وقيل: إنهم هاجموا بإيعاز من بعض الذين هاجموا المتنبى،
وقاتلهم المتنبى، ولكنه قتل هو وابنه وغلّامه سنة ٣٥٤.

وكان المتنبى عالما لغويا وشاعرا عبقريا، وشعره صورة لحياته وأفكاره.

التعليق على القصيدة :

في هذه القصيدة يعاتب المتنبى سيف الدولة ويمدحه وينذره بأنه سيفاد
مملكة سيف الدولة، وقيل: إنها آخر قصيدة أنشدها أمام سيف الدولة قبل أن
يرحل متوجها الى مصر، وقيل: إنه حدثت مشادة بين ابن خالوية والمتنبى وضرب
ابن خالوية المتنبى بمفتاح فشج رأسه ولم يتحرك سيف الدولة، وقد بدأ المتنبى
القصيدة بما يوهم أنه يتغزل حيث يقول:

واحرق قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ما لي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الامم؟

إن كان يجمعنا حب لغرتي فليت أنا بقدر الحب نقتسم

البيت الأول يوهم بأنه يتغزل، ولكن البيت الثاني يكشف عن أنه يمدح
سيف الدولة، والتعبير بضمير المذكر في قوله: (قلبه شيم) لا ينفي أنه يتغزل،
فقد كانوا يعبرون عن المحبوبة بضمير المذكر، والشيم البارد العذب فهي برودة
ممدوحة لا مدمومة، ويطلقون على مطلع القصيدة (واحرق قلباه) أسلوب ندية
واستغاثية، فهو يندب حظه ويستغيث من شدة حرارة قلبه، والسقم هنا المرض
من شدة عذاب الحب، وصرح في البيت الثاني بأن الحب الذي يعلنه حبه لسيف
الدولة، وأعلن أنه حب صادق، وحب كثير من الناس ادعاء كاذب، والتضعيف
في أكتم يفيد الكثرة والشدة، وفي البيت الثالث يأتي أسلوب التمني (فليت أنا
بقدر الحب نقتسم) والتمنى يفيد الحسرة، لأنه يحب سيف الدولة أكثر من غيره
ولكنه لا ينال منه ما يناله غيره.

ثم ينتقل المتنبي الى المدح صراحة فيقول :

قد زرتة وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

وهنا يتحدث عن تفوق سيف الدولة في السلم وفي الحرب، وقد رآه في الحالتين، رآه والسيوف مغمدة، ورآه والسيوف تقطر دما، وتفوق سيف الدولة في الحرب ينبع من شجاعته، أما تفوقه في السلم فينبع من أخلاقه الحميدة، وأعلن المتنبي أن سيف الدولة أحسن خلق الله، وأن أحسن ما فيه أخلاقه، وهي نظرة صائبة فإذا كان الإنسان مجرد مقاتل لم يزد على أنه وحش، والأخلاق الحميدة مطلوبة في السلم وفي الحرب .

وكان سيف الدولة قد أعد جيشا لحرب الروم وهرب جيش الروم قبل الالتحام بجيش سيف الدولة، ولم ينس المتنبي هذا الموقف واستغله في المدح أعظم استغلال، وكان المتنبي عبقريا يعرف كيف يمدح، فكان يمدح سيف الدولة إذا قاتل وانتصر، ويمدحه إذا قاتل وانهزم، ويمدحه إذا هرب جيش العدو، وفي هذه القصيدة يقول :

فوت العدو الذي بممته ظفر	في طيّه أسف في طيّه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت	لك المهابة ما لا تصنع البهم
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها	ألا تواريهم أرض ولا علم
أكلما رمت جيشا فأنثنى هربا	تصرفت بك في آثاره الهمم؟
عليك هزمهم في كل معترك	وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر	تصافحت فيه بيض الهند واللمم؟

ويؤكد المتنبي أن هرب العدو ظفر مثل ظفر سيف الدولة في المعركة، وهذا حق لأنه يدل على هيبة سيف الدولة وخوف العدو منه وإن كان سيف الدولة

أسف لذلك ولكنها نعمة من الله حيث سلم سيف الدولة وجيشه وتحقق له ما يريد، والبُهم جمع بهمة وهو الشجاع، وحقا أن الخوف يصنع في الجنود ما يصنعه العدو لأن الخوف يهد العزائم، ويؤكد الشاعر شجاعة سيف الدولة بأنه ألزم نفسه بأن يدمر الأعداء ويشتتهم وألا يتركهم يخطفون في أرض أو وراء جبل، ويأتي باستفهام للتعجب من تصميم سيف الدولة على تعقب العدو وتدميره، ثم يأتي بحكمة رائعة فيعلن أن سيف الدولة ملزم بأن يهزم عدوه ولكنه برىء من العار إذا انهزم العدو، ويأتي باستفهام للتقرير فيقرر أن سيف الدولة لا يلذ النصر إلا إذا ضربت سيوفه هامات العدو، واللمم جمع لمة وهي الشعر الملم بالمتنكب.

ثم ينتقل المتنبي إلى العتاب مازجا بينه وبين المدح فيعاتب سيف الدولة لأنه ظلمه حين سوى بينه وبين غيره، وكان المتنبي يشعر بالتفوق وهو على حق، وكان سيف الدولة مقتنعا بتفوقه ولكنه ضاق بغروره، وسنرى في هذه القصيدة أن المتنبي فضل نفسه على الناس جميعا، وينطوى هذا على أنه أفضل من سيف الدولة، وفي عتابه لسيف الدولة يقول

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيدها نظرات منك ثاقبة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم؟

وكان المتنبي رائعا في عتابه فقد اتهمه بعدم العدل ولكنه أثبت له أنه أعدل الناس وأنه لم يعدل مع المتنبي فقط، ثم إنه سلم الأمر إلى سيف الدولة وجعله الخصم والحكم، فهو لا يشكوه إلى أحد غيره، ونزهه أن تكون نظراته خاطئة فيسوى بين الشحم والورم، ويرمز بالشحم إلى شعر المتنبي، وبالورم إلى شعر غيره من الشعراء، وكذلك الأنوار والظلم، فالأنوار أشعار المتنبي، والظلم أشعار غيره، وقد سارت الأبيات الثلاثة مسير الحكم والناس يتمثلون بقوله: أنت الخصم والحكم، وكذلك البيتان التاليان.

ويكثر المتنبي من الفخر، ويفتخر هنا بشعره ويعلمه باللغة وإلمامه بكل شاردة، ويقوته وشجاعته، وفي فخره بشعره وعلمه باللغة يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمنت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وقد سار البيتان على السنة الناس، وكان أبو العلاء المعري يقول: إن المتنبي قصدني بقوله: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي، وهذا قمة العظمة والتأثير أن يراه الأعمى ويسمعه الأصم، ويعلن أنه يلم بشوارد اللغة وينام مطمئناً لإحاطته بها، والناس يسهرون ويختصمون، وكان المتنبي عالماً لغوياً وله في ذلك مواقف، وكان أيضاً يعقد بعض أبياته أحياناً ويجعل معناها غامضاً ليختلف الناس حولها ويكثر الجدل والنقاش، وملء جفوني توحى باطمئنانه وثقته، والشوارد الكلمات الغامضة والقواعد الشاذة التي يجهلها الناس.

وفي فخره بقوته يضم شعره إلى قوته لأن شعره من مصادر قوته، ويأتي بحكمة رائعة مسلمة فيقول:

وجاهل مده في جهله ضحكى حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث مبيتسم

كان المتنبي يبيتسم ثقة بنفسه ولكنه يحذر الجاهل الذي يتجراً على الإساءة إليه، فهنا اليد القوية واللسان الحاد، ولفظ فراسة صيغة مبالغة تدل على كثرة الافتراس، وهنا حكمة رائعة تطرح القضية وتفصل فيها، فنحن نرى نيوب الليث بارزة وليس معنى هذا أن الليث مبيتسم.

وكان المتنبي عاشقاً للخيل يتغزل في عيونها السود ويراه في الحصون كالقلائد في رقاب الحسناوات، ولم ينس هنا أن يشير إلى الخيل التي تدرك أعداءه حيث يقول:

ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم

وقد وصف الجواد بالسرعة والأصالة، فالجواد ظهره حرم لا يركبه أى إنسان، وهو سريع تتحرك رجلاه وكأنهما رجل واحدة، ويداه وكأنهما يد واحدة، وهو أصيل يفعل ما يريد صاحبه، والخيل معروفة بالذكاء وتطيع صاحبها إذا كان فارسا.

والسيف من لوازم الفارس فهو السلاح الذى يضرب به، وكان المتنبي فارسا شجاعا ولذلك يقول:

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فهو يشق الصفوف ويضرب والموت يلتهم الفرسان، واختراق الصفوف
ينبىء عن الشجاعة الفائقة، وقد شبه الموت بالموج المتلاطم ليوحى بهول الحرب.
وأخيرا يأتى بيت يجمع فيه صفاته ومهاراته التى عرف بها وتدور حول
الشجاعة والفصاحة:

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب منى القور والأكم
وقد سار البيت الأول على السنة المتأدبين، وكان المتنبي متشائما سيىء
الظن بالناس يميل الى الوحدة ونراه هنا يركن الى الصحراء الموحشة منفردا حتى
تتعجب الصحراء والخيل منه، والقور جمع قارة أرض فيها حجارة سود، والأكم
جمع أكمة وهى الجبل الصغير.

وينتقل الشاعر الى هدف مهم فى القصيدة فينذر سيف الدولة بأنه عازم
على الرحيل، ويلقى باللوم على سيف الدولة:

يا من يعز علينا أن نفارقهم	وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة	لو أن أمركم من أمرنا أم
إن كان سرکم ما قال حاسدنا	فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة	إن المعارف فى أهل النهى ذم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم	ويكره الله ما تاتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى	أنا الثريا وذان الشيب والهزم

ليت الغمام الذى عندى صواعقه يزيلهن الى من عنده الدّيم
أرى النوى تقتضينى كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرّسم
فى هذه الأبيات يعبر عن مشاعره نحو سيف الدولة على الرغم من عزمه
على الفراق، ويعبر عن مكانته، ويعبر عن موقف الحساد وموقف سيف الدولة.
أما عن مشاعره فهو يشعر بأن كل شىء سيصير عدما ولن يشعر بسعادة
بعد فراق سيف الدولة، ولعله يستميله ليقدم على استرضائه وتحويله عن
الرحيل، والمتنبى مع كل ذلك لا يتألم لشىء يرضى سيف الدولة، ومع ذلك
فسيف الدولة يحاول إلصاق العيب به، أما عن مكانته فهو جدير بالتكريم لأنه
بعيد عن العيب والنقصان، ويأتى بتشبيه غاية فى الروعة فى هذا الموقف فهو
الثريا فى السماء لا ينالها عيب ولا نقصان، وكان الواجب على سيف الدولة ألا
يصغى الى الحساد وأن يرعى حرمة الماضى الذى ارتبط فيه المتنبى بسيف الدولة
وأخلص كل منهما للآخر، ولكن سيف الدولة يصب نغمه على المتنبى، ويسبغ
نعمه على غيره، وهكذا كتب على المتنبى أن يرحل ويقطع المراحل الشاقة التى
تعيابها الإبل القوية والوخادة التى تسير الوخد وهو ضرب سريع من السير،
والرسم جمع رسوم وهى التى تسير الرسم وهو ضرب من السير أيضا.
ويستمر المتنبى فى فخره ويحذر سيف الدولة بأنه سيندم لفراق المتنبى،
ويعلن أنه خير من يمضى على الأرض، ويصرح بأن باستطاعة سيف الدولة أن
يثنيه عن الرحيل فإن قعد عن ذلك فسيف الدولة هو المفارق.

لئن تركنا ضميرا عن ميامنا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
سيعلم الجمع من ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم
ويبرر المتنبى رحيله تبريرا نفسيا فيقول فى حكم رائعة:
شر البلاد بلاد لا صديق بها وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
وقد أصبح المتنبى يفتقد الصديق المخلص فى مملكة سيف الدولة فهى شر

البلاد، وكأنه يقول أيضا: إن موقف سيف الدولة قد وُصمه لأنه يتخلى عن أصدقائه، ثم إن المتنبي لا يرضى إلا بعظائم الأمور ولا يرضى بما يرضى به عامة الناس، وشبه نفسه بالباري، وشبه أصحاب النفوس الصغيرة بالرخم (طائر ضعيف).

ويعاتب سيف الدولة لأنه يسمع أشعار غيره من الشعراء الساقطين ويسوى بين العرب والعجم فيقول:

بأى لفظ يقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم

ويختتم القصيدة ببيت رائع يقول:

هذا عتابك إلا أنه مقّة قد ضمن الدرّ إلا أنه كلم

فالقصيد عتاب ولكنه عتاب نابع من الحب، وهى كلام ولكنه ليس كغيره من الكلام فهو كلام غالى القيمة كالدر.

* * *

نقد القصيدة :

تدور هذه القصيدة حول عتاب سيف الدولة ومدحه وفخر المتنبي بنفسه لإثبات تفوقه، أما ما يوهم الغزل في مطلع القصيدة فليس بغزل حقيقي، وكانوا يعبرون عن المحبوبة بضمير المذكر، فمطلع القصيدة ليس تقليديا، ولم يكن المتنبي يكثر من الغزل لأن انشغاله بمعالى الأمور صرفه عن الانغماس في الغزل، وقد بدأ القصيدة بالاستغاثة لشدة ما يعانیه من حرارة قلبه، والتضعيف في الفعل (أكتنم) يفيد كثرة الكتمان، والفعل (برى) يوحى بنحول الشاعر، ليت للتمنى يفيد الحسرة، والغرة بياض في جبهة الفرس توحى بإشراق سيف الدولة، ويأتى الشاعر بأدوات التوكيد ومنها قد الداخلة على الفعل الماضى، وكذلك كلهم، وأحسن اسم تفضيل.

والمتنبي حريص على تأصيل الصفات في سيف الدولة ويختار الألفاظ التي تحقق ذلك ومنها الفعل (ألزمت) ويدل هذا على أنها أصبحت عادة متأصلة في سيف الدولة، واستعمال أداة الشرط (كلما) يفيد ذلك لأنها أداة تفيد تكرار الجواب لتكرار الشرط فيتكرر انطلاق همته في آثار العدو كلما هرب جيش العدو، والاستفهام في قوله: (أما ترى...) استفهام للتقرير لأن الهمزة دخلت على نفي.

وحين بدأ في عتاب سيف الدولة كان رائعا حيث وصفه بأنه أعدل الناس واستثنى المتنبي شخصه، ومع ذلك فقد سلم الأمور إليه ورضى قضاءه وجعله الخصم والحكم، وحين وزن المتنبي بين شخصه وغيره من الشعراء جعل نفسه شحما وغيره ورما، وجعل نفسه نورا وغيره ظلما.

وفي فخره بشعره وقوة تأثيره يجعل الأعمى يرى أدبه، والأصم يسمعه، ويتحدث عن نومه ملء جفونه والناس ساهرة تتناقش حول شعره، وكان المتنبي في بعض الأحيان يتعمد تعقيد بعض الأبيات ليختلف الناس حولها ويكثر الجدل والحوار، وهذا يؤدي بالطبع إلى ذبوع صيته، وكان المتنبي عالما لغويا كما كان شاعرا عبقريا.

وحين فخر بقوته وشجاعته جمع بين يده وفمه ليدل على ما لشعره من قوة

التأثير، وفراصة صيغة مبالغة تفيد كثرة الافتراس، وكان المتنبي فارساً، ولم ينس الخيل وكان المتنبي عاشقاً للخيل يتغزل في عيونها السود ويراها في الحصون كالقلائد في رقاب الحسناوات، ووصف الخيل بالسرعة والذكاء والطاعة لفارسها، ومن مظاهر حسن اختياره لالفاظه قوله: (بين الجحفلين) وتدلل على اقتحامه قلب المعركة، وقوله: (موج الموت يلتطم) وتوحي بضراوة المعركة وكثرة القتلى، وقوله: (صحبت الوحش) تفيد طول المدة حتى نشأت هذه الصحبة بينه وبين الوحش، وحتى تفيد الغاية والغاية هنا أن الأرض نفسها تتعجب من حالته.

ويحاول المتنبي اجتذاب سيف الدولة واسترداد عطفة قبل أن ينفذ تهديده بالرحيل، وقد أعلن أنه يحب سيف الدولة، وأن سيف الدولة خير الناس، وأنه أعدل الناس، ويعلن مرة أخرى أنه إذا فارق سيف الدولة فسيكون كل شيء في حكم العدم، وأنه راض بالجرح إذا رضى سيف الدولة ذلك ومع كل هذا فالصواعق تصيب المتنبي، والديم تصيب غيره.

وفي البيت قبل الأخير يظهر تعصب الشاعر للعرب حيث ينكر على سيف الدولة أن يسوى بين العرب والعجم، ويأتي باستفهام للإنكار.

والمتنبي شاعر الحكمة، وقد دارت بعض الشطرات والأبيات في هذه القصيدة على الألسنة على مر العصور ومنها: فيك الخصام وأنت الخصم والحكم، ومنها: وجدائنا كل شيء بعدكم عدم، ومنها: أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم.. وكان ختاماً رائعاً للقصيدة أن جعل العتاب حياً، والشعر دراً، فحقق الاسترضاء والفخر.

التصوير :

في القصيدة كثير من الصور البيانية الرائعة، ومنها الاستعارة المكنية في قوله: قد ناب عنك شديد الخوف، وقوله: تصافحت فيه بيض الهند واللمم

حيث شبه الخوف والسيوف بإنسان، ونرى الاستعارة التصريحية فى لفظة (الدر) حيث شبه كلماته العظيمة بالدر وحذف المشبه، ونرى التشبيه فى قوله (أنا الثريا وذان الشيب والهزم) - ونرى الكناية فى قوله : أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى . كناية عن قوة تأثير شعره .

المحسنات البديعية :

والمتنبى لا يتكلف المحسنات البديعية وإن كان يهتم بالطباق والمقابلة، كما نرى فى البيتين الأول والثانى .

* * *

رسالة

كتب ابن عبد كان عن أحمد بن طولون الى ابنه العباس حين عصى
بالاسكندرية:

من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين الى الظالم لنفسه، العاصى لربه،
الملثم بذنبه، المفسد لكسبه، العادى لظوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبه،
المركوس فى فتنته، المبخوش من حظ دنياه وآخرته.

سلام على كل منيب مستجيب، نائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم^(١)
وحلول القوت والندم.

وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، والطول
الجليل، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه، مجتهد فى دعائه أن يصلى على محمد
المصطفى وأمينه المرتضى.

أما بعد، فإن مثلك مثل البقرة تثير المدينة بقرنيها، والنملة يكون حتفها فى
جناحيها، وستعلم هبلتك الهوابل، أيها الأحق الجاهل، الذى ثنى على الغى
عطفه، واغتر بضجاج^(٢) المواكب خلفه أى موردة هلكة بإذن الله توردت إذ
على الله جل وعز تمردت وشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً
﴿قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

وإنا كنا نقربك إلينا، وننسبك الى بيوتنا طمعاً فى إنابتك وتأميلاً لفيعتك،
فلما طال فى الغى إنهماكك، وفى غمرة الجهل ارتباكك، ولم نر الموعظة تلين
كبدك ولا التذكير يقيم أودك لم تكن لهذه النسبة أهلاً، ولا لإضافتك إلينا
موضعا ومحكاً، بل لا نكنى بأبى العباس إلا تكرماً وطمعاً بأن يهب الله منك
خلفاً نقلده اسمك ونكنى به دونك، ونعدك كنت نسياً منسياً، ولم تك شيئاً
مقضياً، وأعلم أن البلاء - بإذن الله - قد أظلك، والمكروه - إن شاء الله - قد أحاط
بك، والعساكر - بحمد الله - قد أتنك كالسيل فى الليل، تؤذئك بحرب وبويل،

(١) الكظم يفتح الطاء مخرج النفس.

(٢) الضجاج الريح.

منفقين فيك كل مال خطير، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت، وتستدفع من البلاء ما استدعيت، حين لا دافع بحول الله عنك، ولا مزحزح لنا عن ساحتك، فحينئذ يتغرى لك الليل عن صبحه، ويسفر لك الحق عن محضه، فتتنظر بعينين لا غشاوة عليهما، وتسمع باذنين لا وقر فيهما، وتعلم أنك كنت متمسكا بحبال غرور، متماديا في مقابح أمور، من عقوق لا ينال طالبه، وبغى لا ينجو هاربه.

وإن مما زاد في ذنوبك ما ورد به كتابك على من تمويهات وأعاليل، وعدات بالباطيل، من مسيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد على، وإنك إن شاء الله لا تقصد موضعا إلا تلوتك، ولا تأتي بلدا إلا قفوتك، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله - عز وجل في جذ حبلها وفض عروتها فإن أحدا لا يؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا، فاما الدين فانت خارج من جملته لمقامك على العقوق، ومخالفة ربك وإسقاطه، وأما الدنيا فما أراه بقي معك من الحطام الذي سرقتة وحملت نفسك على الإيثار به، ما يتهيا لك مكائرتنا بمثله مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التي أوتودعه تبارك وتعالى إياها وأرغب إليه في إيمائها.

فأصلح أيها الصبي الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا، واحزم في أمرك قبل استعمالك الحيزم لنا، فما أحوجنا الله - وله الحمد - إلى نصرتك ومؤازرتك، ولا اضطررنا إلى التكثربك على شقاقك ومعصيتك (وما كنت متخذ المضلين عضدا).

وليت شعري على من تهول بالجنود وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك الباذلون دماءهم وأموالهم دونك دون رزق ترزقهم إياه ولا عطاء تدره عليهم؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والخوف من سلطانك فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك، ولو كانوا جميعا معك ومقيمين على نصرتك لرجونا أن يمكن الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم.

وما دعاني إلى الإرجاء لك والتسهيل من خناقك والإطالة من عنانك إلا أنني

رجوت أن تحن إلينا حنين الولد، وتتوق إلينا توقان ذى الرحم، فإن نى رفقنا بك ما يعطفك إلينا، وفى تأخيننا إياك ما يردك علينا، فأما الآن مع اضطرابك إياى الى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوك، وحبسك رسلى، واستعمالك الموارد والخداع فيما يجرى عليه تدبيرك فما أنت بموضع للصيانة، ولا أهل للإبقاء والمحافظة، بل اللعنة عليه حالة، والذمة منك برية، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة، والإضاعة لرحم الأبوة، فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين، وأثكلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حفظك.

فوالله لاستعملن لعنك فى دبر كل صلاة، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار، والغدو والآصال، ولا كتين الى مصر وأجناد الشام والثغور والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتبنا تقرأ على منابرنا فيك باللعن لك، والبراءة منك، يتناقلها آخر عن أول، ويأثرها غابر عن ماض، وتخلد فى بطون الصحائف، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما اطرده الليل والنهار، واختلف الظلام والأنوار.

فحينئذ تعلم أيها المخالف أمر ربه، القاطع رحمه، العاصى ربه أى جناية على نفسك جنيت، وأى كبيرة اقترفت واجتنت، وتتمنى أن لم تكن ولدت، ولا فى الخلق عرفت، إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع الى من قبلنا خاضعا ذليلا كما يلزمك فنقيم الاستغفار مقام اللعنة، والرقعة مقام الغلظة، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها، وذكر الله فاتقاه إن شاء الله تعالى.

* * *

قيام الدولة الطولونية في مصر

في سنة ٢٥٤ ولى الخليفة المعتز حاجبه بايكباك مصر، فأناب عنه ابن زوجته أحمد ابن طولون، وهو تركي الأصل ولد سنة ٢٢٠ هـ ورعى تربية صالحة وحفظ القرآن وسمع المحدثين وتعلم العلوم العربية والشرعية، وكان ذكياً فعد من فصحاء رجال السياسة بلسانه وقلمه، ورزق صوتاً جميلاً وأتقن الموسيقى ونظم الشعر بالتركية لغة أبيه وأمه.

قدم أحمد بن طولون مصر والياً عليها سنة ٢٥٤ وكان طموحاً وأخذ يعمل على الاستقلال بمصر وجمع في يده الإدارة السياسية والمالية، وكون جيشاً ضخماً بلغ مائة ألف مقاتل، وبنى مدينة القباطيع وأنشأ مسجده المعروف باسمه، وكان أحمد بن طولون قاسي القلب يأخذ بالشبهة ويشدد في العقاب.

ومن أبرز الأحداث في عهد ابن طولون خروج ابنه العباس عليه وتحصنه في مدينة الاسكندرية وقامت الحرب بين الأب وابنه، وانتهت بهزيمة العباس وأسرته وسجنه، ومات أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ وتولى ابنه خمارويه، وكانت نهاية خمارويه أنه قتل في دمشق سنة ٢٨٢ وتولى من بعده ابنه الأكبر أبو الجيش ثم خلع بعد عام، وتولى أخوه هارون، ثم اغتيل هارون سنة ٢٩٢ وتولى عمه شيبان، وأرسل الخليفة المكتفي جيشاً بقيادة محمد بن سليمان قضى على الدولة الطولونية وأخذ أفرادها وأرسلهم إلى بغداد، وعادت مصر ولاية عباسية يتعاقب عليها الولاة، حتى جاء محمد بن طغج الإخشيد وأقام الدولة الإخشيدية بمصر.

الحياة الأدبية في عهد الدولة الطولونية :

شهد العصر الطولوني نهضة علمية أدبية، واهتم بديوان الرسائل حتى أشبه ديوان الخلافة، وكان قد استصحب معه عند حضوره إلى مصر بعض الكتاب العراقيين مثل ابن عبد كان، واستكتب جعفر بن عبد الغفار وكان من أصل مصري، وكان ابن طولون يشرف بنفسه على كل شيء ويقرأ الرسائل ويضيف بيده ما يريد إضافته دون أن يطلع عليه كتابه، وكان يجيد العربية وكان ذواقة لالفاظ اللغة ومعانيها.

ووردت إلينا رسائل كثيرة من العهد الطولوني، ومعظم هذه الرسائل سياسية صدرت من مصر أو وردت إليها، وبعضها تبودل بين ابن طولون وال خليفة أو كبار الشخصيات، وبعضها رسائل داخلية تبودلت بين ابن طولون وابنه العباس، وبين ابن طولون وكبار الشخصيات في مصر.

أما الرسائل الاجتماعية فكانت قليلة ودارت حول أغراض عديدة كالتهنئة والشفاعة، ومن الطبيعي ألا تشجع الرسائل الاجتماعية وتنتشر كشيوع الرسائل السياسية، وكان المؤرخون يركزون اهتمامهم حول الرسائل السياسية.

وأنتج العهد الطولوني كتابا بعنوان (المكافأة) كتبه أحمد بن يوسف، ويحوى إحدى وسبعين قصة قصيرة تدور حول المكافأة على الجميل بالجميل، والمكافأة على القبيح بالقبيح، وحسن العقبي لمن وقع في شدة ثم خلس منها. وكانت اللغة العربية تزداد انتشارا على مر الأيام، حتى إذا كان القرن الرابع سيطرت اللغة العربية وتغلبت على اللغتين اليونانية والقبطية.

شرح رسالة أحمد بن طولون إلى ابنه العباس :

أبرز الأحداث في عهد ابن طولون ثورة ابنه العباس على والده واشتعال الحرب بينهما، وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة العباس وضربه وحبسه.

حاول أحمد بن طولون أن يستميل ابنه العباس فأمر ابن عبد كان أن يكتب رسالة إلى العباس يستميله وينصحه، وكتب ابن عبد كان الرسالة، ولكنها لم تؤت ثمرتها المرجوة، لأن العباس كان قدر ركب رأسه وأجمع أمره

وكتب ابن عبد كان رسالة ثانية على لسان أحمد بن طولون، وكان العباس متحصنا بالاسكندرية، وجاءت الرسالة مطولة وافتن فيها ابن عبد كان لعله ينفذ إلى قلب العباس، وبدأ الرسالة بأن أضفى الشرعية على ابن طولون ونسب العباس إلى الخسران في الدنيا والآخرة حيث يقول :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه، العاصي لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه، العادى لطوره، والجاهل لقدره، والناكص على عقبه، المركوس فى فتنته، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ».

تبدأ الرسالة بذكر المرسل والمرسل إليه : (من أحمد بن طولون الى الظالم لنفسه)، وهى من الرسائل السياسية المطولة، وكاتب الرسالة ابن عبد كان، ولكنه يكتب باسم أحمد بن طولون، ووصف ابن طولون بأنه مولى أمير المؤمنين ليضفى الشرعية على ابن طولون، ويؤكد أنه من أتباع أمير المؤمنين، وكان العباس يتهم أباه بأن أمور أمير المؤمنين اختلت فى يد ابن طولون .

وسارع الكاتب الى توبيخ العباس واتهامه بكل التهم، وراح يعمق التهمة ويبرز جوانب مختلفة من عيوب العباس ويقلب المعنى على وجوهه المختلفة ويظهره فى مظاهر متغايرة، فظلم الإنسان لنفسه جريمة، وعصيانه لربه جريمة أخرى، وإفساد الإنسان ما كسبه حقد، وجهل الإنسان قدره مهانة، ونكوص الإنسان على عقبة خور، والإركاس فى الفتنة ضلال، والنحس سوء طالع، وقد جمع الكاتب عيوب الدنيا والآخرة وألصقها بالعباس .

وأخر الكاتب السلام والتحميد الى ما بعد هذا الهجوم ليرز عيوب العباس فى مقدمة الرسالة، ثم أتى بالسلام والتحميد حيث يقول : « سلام على كل منيب مستجيب، نائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم وحلول الفتوت والندم، وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، وأسأله أن يصلى على محمد المصطفى » .

والسلام هنا مقيد وليس بمطلق، فهو سلام على كل راجع الى الحق من قريب، والسلام الأمان ولا أمان للعاصى ربه، وكان الشعور الدينى مازال قويا فى تلك الفترة، وكانوا دائما يحمدون الله ويصلون على النبى .

ثم انتقل الكاتب الى توبيخ العباس وصوره فى صورتين يبرزان حمقه وأنه يسعى بنفسه الى هلاكه فقال : « أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدينة بقرنيها، والنملة يكون خنثفها فى جناحيها » فهو كالبقرة تؤذى الناس فتدفعهم الى ذبحها، والنملة تحوم حول النار فتحترق بها، وهنا صورتان، مألوفتان راسختان فى كل نفس، ويلجأ الى التوكيد بإن، والصورتان تبرزان العدوان وفساد العقل .

ويستمر فى تهديد العباس فيقول : « وستعلم - هبلتك الهوايل - أيها

الأحمق الجاهل» والسين للتوكيد، والفعل يعلم يؤكد أنه سيرى ذلك يقينا، والجملة الاعتراضية (هبلتك الهوابل للدعاء عليه بالهلاك، والثانية (أيها الأحمق الجاهل) للتوبيخ، ويقتبس من القرآن آية تفيد أن الإنسان يبطر على نعم الله فيبدل الله حاله من السعادة الى الشقاء، والآية تقول : ﴿ قَرِئَةُ كَانَتْ آمَنَةً مَطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

ويوجه الى العباس إنذارا بأنه يغس من إنابته ويبرأ منه، ويعلن أنه لا يكتفى بنفسه بابي العباس إلا أملا في أن يهب الله من العباس ولدا يسميه العباس وتكون الكنية له ويعفى النسيان على العباس العاصي وكأنه لم يكن، ويقتبس هنا من القرآن أيضا فيقول : « ونعدك كنت نبيا منسيا، ولم تك شيئا مقضيا»، وفي القرآن الكريم على لسان السيدة مريم... ﴿ يَالَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا ﴾، ويقول لها الملك : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًا ﴾ .

ويعلن الكاتب الحرب على العباس فيقول : « واعلم أن البلاء - بإذن الله - قد أظلك، والمكروه - إن شاء الله - قد أحاط بك، والعساكر - بحمد الله - قد أتتك كالسيل في الليل تؤذئك بحرب وبويل»، ويقدم الكاتب المشيعة (بإذن الله، إن شاء الله) تفاؤلا بوقوع ذلك، ويعبر بالبلاء والمكروه، ويجعل البلاء يظله، والمكروه يحيط به، ويأتي بأداتين للتوكيد : أن وقد، ويشبه العساكر التي سيرسلها أحمد بن طولون بالسيل في الليل، والسيل جارف لا يمكن مقاومته، والليل رهيب يزيد الهم والحيرة.

وتكشف هذه الرسالة عن أن العباس أرسل الى والده بأنه سيسير إليه بجيوشه ليصلح ما أفسده أحمد بن طولون، ويرد عليه الوالد بأنه سيهاجم في كل مكان يحل فيه ولن يصرفه عنه صارف.

وتجمع الرسالة بين الاستثارة العاطفية والإقناع العقلي، وهنا يحاول إقناع ابنه بأن مصيره الفشل فيقول له : « وإن أحدا لا يؤوي مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا، فأما الدين فانت خارج من جملته لمقامك على العقوق ومخالفة ربك وإسقاطه، وأما الدنيا فما أراه بقي من الحطام ما يتهيا لك مكاثرتنا

بمثله»، وبذلك جرده من عوامل النجاح الدينية والدنيوية، فقد أسخط ربه بمخالفة أبيه، وفقد عوامل النجاح الدنيوية لأن ما معه من أموال يجتذب بها الأنصار لا تساوى ما مع والده.

ويستمر الكاتب فى مناقشة عقلية مقنعة فيقول : « فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والخوف من سلطانك فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك ». وقد حدد عاملين للالتفاف حول الرئيس ، أولهما : الهيبة، والوالد يملك منها ما لا يملكه الولد، وثانيهما : المال، وهو عند الوالد أوفر مما عند العباس، وبذلك يفقد العباس الأمل فى وجود الأنصار والنجاح.

ويعلن أحمد بن طولون أنه تأخر عن الحرب أملاً فى عودة ابنه الى الطاعة، ولكن العباس جمع وتمرد وسلك سبلاً منافية للعرف، حيث حيس الرسل الذين أرسلهم أحمد بن طولون، ولجأ الى الخداع، وقد نفذ صبر أبيه وتحول قلبه عنه، ولذلك يلعنه ويتبرأ منه ويدعو بهلاكه.

ويعلن ابن طولون أنه سيكتب الى البلاد كتباً تقرأ فيها بلعن العباس والتبرؤ منه، تلحق به العار على مر الزمان، يقول : « والله لاستعلمن لعنك فى دبر كل صلاة، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ولأكتبن الى مصر وأجناد الشام والشغور والعواصم ومكة والمدينة كتباً تقرأ على منابرها فيك باللعن لك، والبراءة منك يتناقلها آخر عن أول وتخلد فى بطون الصحائف، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما أطرده الليل والنهار ».

ويترك الوالد الباب مفتوحاً ويرأوده الأمل فى أن يعود الولد الى أحضان أبيه مستغفراً وحينئذ يغفر الأب، ويحل الرضا محل الغضب، يقول : « إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى من قبلنا خاضعاً ذليلاً، فنقيم الاستغفار مقام اللعنة، والرقعة مقام الغلظة، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها، وذكر الله فاتقاه، إن شاء الله تعالى »، وكما قيد السلام فى أول الرسالة فجعله لكل منيب مستجيب، قيده هنا فجعله لمن سمع الموعظة فوعاها وذكر الله فاتقاه.

الأسلوب :

كان أسلوب الكتابة في القرن الثالث الهجري يتراوح بين الأسلوب المرسل والأسلوب المسجوع ، وكان هذا بداية لسيادة الأسلوب المسجوع في القرن الرابع، ونرى الرسالة التي كتبها أحمد بن طولون أو بعبارة أخرى كتبها ابن عبدكان يسودها الأسلوب المسجوع، وكان ابن عبدكان لا يركز اهتمامه في أداء المعاني التي يريد توصيلها، وإنما كان يهدف الى جانب ذلك الى إظهار المهارة الفنية والى تجميل الأسلوب ليكون أشد تأثيرا فيمن يرأسله ، ولذلك لجأ الى الاطناب والتكرار والسجع ليؤكد المعنى ولتزداد فرص التأثير في الملتقى .

والسجع واضح في هذه الرسالة ويكفى أن نقرأ الفقرة الأولى فنرى بها : « العاصي لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه » والسجع في الرسالة أوضح من أن يحتاج الى تتبع وتوضيح .

ونرى الطباق والجناس أيضا كقوله في الفقرة الأولى : « المبخوس من حظ دنياه وآخرته » وهنا طباق، ونرى الجناس في قوله : « البلاء الجميل والطول الجليل »، ونرى الازدواج يسود الرسالة، والمراد به تساوى الجمل في النغم الموسيقى، وهو كثير ومنه قوله : « فلما طال في الغي انهماكك، وفي غمرة الجهل ارتباكك، ولم نر الموعظة تلين كبذك، ولا التذكير يقيم أودك » . وتتراوح الرسالة بين الجمل الطويلة والجمل القصيرة، ومن الجمل القصيرة قوله : « بل اللعنة عليك حالة، والذمة منك بريئة »، ومن الجمل الطويلة قوله : « وإنا وإن كنا نقريك إلينا وننسبك الى بيوتنا طمعا في إنابتك . . » .

وكان الكتاب يختارون بعد امتحانات عسيرة في اللغة والأدب والنحو والثقافة العامة، ونرى الصحة النحوية والسلامة اللغوية يسودان الرسالة، والكاتب قدبر على اختيار الألفاظ الملائمة الموحية بالمعاني المرادة، كما نرى في قوله : « أيها الأحمق الجاهل »، فالأحمق فاسد العقل، والجاهل الذي لا يدري حقائق الأمور، وإذا اجتمع الحمق والجهل كانت الكارثة، وكما نرى في قوله : « واعلم أن البلاء قد أظلك، والمكروه قد أحاط بك »، وإذا أظله الشر من فوقه وأحاط به من كل جانب لم يكن هناك سبيل الى النجاة .

والألفاظ يغلب عليها السهولة والوضوح، والألفاظ المعجمية نادرة، ومنها المركوس أى المردود، والكظم مخرج النفس، وهبلك ثكلتك، والوقر ثقل فى الأذن .

ويستعمل الكاتب أدوات التوكيد فى موضعها حين يكون الموقف محتاجا إلى التوكيد، وتدخل هذه الأدوات على الأسماء والأفعال، ومن ذلك قوله: «فإن مثلك مثل البقرة»، فيؤكد بإن، ويقول: «وستعلم» فيؤكد بالسين، ويقول: «واعلم أن البلاء قد أظلك»، فيؤكد بأن وقد والفعل الماضى، ويقول: «فوالله لأستعملن لعنك»، فيؤكد بالقسم ونون التوكيد، ويستعمل كثيرا أسلوب القصص، كما فى قوله: «لا تكنى بأبى العباس إلا طمعا» .

ويقتبس الكاتب من القرآن الكريم، وفى طعنه على ابنه أنه استبدل بحياة الأمن حياة القلق والخوف يقتبس الآية: ﴿قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾، ويقتبس من سورة مريم آيتين فيقول: ﴿ونعدك كنت نسيا منسيا﴾، وهو من قول السيدة مريم: «ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا»، ويقتبس الآية: ﴿ولم تك شيئا مقضيا﴾، وهو من قول الملك: ﴿وكان أمرا مقضيا﴾، ويقتبس الآية: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾، ويقول: ﴿فعليك لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين﴾، وهو من قوله تعالى: ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ .

ويأتى الكاتب بالأساليب الإنشائية لأغراض بلاغية فيقول: «أيها الأحق الجاهل»، وهو نداء للتوبيخ، ويقول: «فأصلح أيها الصبى أمر نفسك»، والأمر للنصح، والنداء للتحقير، «ليت شعرى» التمنى لإظهار الحيرة، وقوله: «فوالله» قسم للتوكيد .

ويستعمل الكاتب الجمل الاعتراضية لأغراض متنوعة فيقول: «وستعلم هبلتك الهابل»، للدعاء عليه، ويقول: «بأن الله، إن شاء الله»، طمعا فى أن يحقق الله ما يدعو به، وقوله: «بحمد الله، له الحمد» لإظهار الرضا بما سيكون، ويقول: يا أيها المخالف أمر ربه «لتوبيخه» .

الصور البيانية :

ترسم الرسالة صورة منفردة للعباس بن أحمد بن طولون، وقد حوت الرسالة كثيرا من الصور الجزئية، فنرى التشبيه فى قوله: «العساكر كالسيل» ونرى التشبيه البليغ فى قوله: «لباس الجوع والخوف»، شبه الجوع والخوف باللباس الذى يكسو، من إضافة المشبه به الى المشبه، ونرى الاستعارة التصريحية فى قوله: «ضحاح المواكب» والضحاح الريح، شبه الاصوات الجوفاء بالريح وحذف المشبه، ونرى الاستعارة المكنية فى قوله: «البلاء أظلك والمكروه أحاط بك» شبه البلاء بشجرة أو مظلة، وشبه المكروه بسور يحيط به، وحذف المشبه به، وأتى بصفة من صفاته، ونرى الكناية فى قوله: «يقيم أودك» كناية عن تقويمه وإصلاحه.

ويوجد التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيلية، فالتشبيه التمثيلى فى قوله: «فإن مثلك مثل البقرة تثير المديّة بقرنيها، والنملة يكون حتفها فى جناحيها»، شبه العباس فى لجوئه الى العصيان وإثارة والده بالبقرة تنطح الناس فتثيرهم فيذبحونها، وكذلك النملة التى تسعى الى الناس فيكون مصيرها الاحتراق، وهنا نرى المشبه والمشبه به، أما الاستعارة التمثيلية ففى قوله: «قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» شبه العباس، حيث كان يعيش آمنا سعيدا ثم تمرد على والده فوقع فى الخطر والمهانة بقرية كانت تعيش آمنة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله الخوف والجوع، وهنا حذف المشبه وأبقى المشبه به، فهى استعارة تمثيلية.

* * *

المقامة الإبلية

حدثنا عيسى بن هشام قال: أضللت إبلالي فخرجت في طلبها فحللت بواد خضر فإذا أنهار مطردة، وأشجار باسقة، وأثمار يانعة، وأزهار منورة، وأنماط (١) مبسوطة، وإذا شيخ جالس، فراعني منه ما يروع الوحيد من مثله، فقال: لا بأس عليك، فسلمت عليه، وأمرني بالجلوس فامتثلت، وسألني عن حالتي فأكبرت، فقال لي: أصبت دالتك (٢)، ووجدت ضالتك (٣)، فهل تروى من أشعار العرب شيئاً؟ قلت: نعم، فأنشدت لامرئ القيس وعبيد ولبيد وطرفة، فلم يطرب لشيء من ذلك، وقال: أنشدك من شعري، فقلت له: إيه، فأنشد:

بان الخليط (٤) ولو طوعت ما باننا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا (٥)

حتى أتى على القصيدة كلها، فقلت: يا شيخ هذه القصيدة لجريز، قد حفظها الصبيان، وعرفها النسوان، وولجت الأخبية (٦)، ووردت الأندية، فقال دعني من هذا، وإن كنت تروى لأبي نواس شعراً فأنشدنيته فأنشدته:

لا أندب الدهر ربعا غير مأنوس ولست أصبو إلى الحادين بالعيس (٧)
أحق منزلة بالهجر منزلة وصل الحبيب عليها غير ملبوس (٨)
يا ليلة عبرت ما كان أطيبها والكوس تعمل في إخواننا الشوس (٩)
وشادن نطق بالسكر مقلته مزنر حلف تسبيح وتقديس (١٠)

(١) أنماط جمع نمط ضرب من البسط.

(٢) الدالة الدليل الذي يهديك.

(٣) الضالة التي تبحث عنها.

(٤) بان فارق، الخليط الأحبة المخالطون، طوعت أطلعت.

(٥) أقرانا حبالاً مقرونة قوية.

(٦) ولجت دخلت - الأخبية جمع خباء وهو الخيمة.

(٧) الربيع البيت القديم الخالي - الحادي من حدا الإبل ساقها وغنى لها - العيس النوق.

(٨) ملبوس من لبس القوم عاش معهم دهرًا.

(٩) الشوس جمع أشوس. والشوس النظر بمؤخر العين كناية عن التكبير.

(١٠) الشادن الغزال الصغير، والزائر - حبل يشد في الوسط - حلف حليف.

نازعته الريق والصهباء صافية في زى قاض ونسك الشيخ إيليس^(١)

قال : فطرب الشيخ وشهق وزعق، فقلت: قبحك الله من شيخ، لا أدري أبا نتحالك شعر جرير أنت أسخف؟ أم بطريك من شعر أبي نواس وهو فويسق عيار^(٢)؟ فقال: دعنى من هذا وامض على وجهك، فإذا لقيت فى طريقك رجلا معه نحى^(٣) صغير يدور فى الدور حول القدور، يزهى بحليته ويباهى بلحيته، فقل له: دلنى على حوت مصرور^(٤) فى بعض البحور، مخطف^(٥) الخصور، يلدغ كالزنبور ويعتم بالنور، أبوه^(٦) حجر، وأمه ذكر، ورأسه ذهب، واسمه لهب، وباقيه ذنب، له فى الملبس عمل السوس، وهو فى البيت آفة الزيت، شريب لا ينقع، أكل لا يشبع، بذول لا يمنع، ينمى الى الصعود، ولا ينقص ماله من وجود، يسوؤك ما يسره، وينفعك ما يضره.

وكننت اكتمك حديثى وأعيش معك فى رخاء، لكنك أبيت فخذ الآن:

فما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وأنا الشيخ أبو مرة^(٧)، قال عيسى بن هشام: ثم غاب ولم أره، ومضيت لوجهي فلقيت رجلا فى يده مذبة، فقلت: هذا والله صاحبي، وقلت له ما سمعت منه، فناولني مسرجة وأوماً الى غار فى الجبل مظلم فقال: دونك الغار ومعك النار، قال: فدخلته فإذا أنا بإبلى قد أخذت سمته^(٨)، فلويت وجوهها ورددتها.

(١) الصهباء الخمر.

(٢) العيار الكثير الطواف فى البلاد.

(٣) النحى وعاء من الجلد. يصف المذبة التى يطرد بها الذباب عن الطعام.

(٤) حوت مصرور يصف ذبالة السراج على طريق الإنغاز - مصرور مشدود أى أن الذبالة فى السائل

كالخوت المشدود فى بعض البحور.

(٥) مخطف ضامر.

(٦) أبوه حجر لأن الزيت يفرزه الحجر بالعصر، وأمه أى الوعاء الذى يوضع فيه الزيت اسمه.

(٧) أبو مرة كنية إيليس.

(٨) السميت الطريق.

وبينا أنا في تلك الحالة في الغياض^(١) أدب الخمر إذ بأبى الفتح
الاسكندري تلقاني بالسلام، فقلت: ما حداك ويحك الى هذا المقام؟ قال: جور
الايام في الأحكام وعدم الكرام من الأنام، قلت: فاحكم حكمك يا أبا الفتح،
قال احملني على قعود، وأرق لي ماء في عود، فقلت: لك ذلك، فأنشأ يقول:

نفسى فداء محكم كلفته شططا فأسجج^(٢)

ما حك لجيتته ولا مسح المخاط ولا تنحج

ثم أخبرته بخبر الشيخ، فأوما الى عمامته وقال: هذه ثمرة بره. فقلت: يا
أبا الفتح شحذت على إبليس إنك لشحاذ.

بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني، ولد في همذان
سنة ٣٥٨ هـ، وتوفي سنة ٣٩٨ هـ، وكان عربيا يعتز بعرويته، وقد ظهرت أمارات
الذكاء والعبقرية وقوة الحافظة - عليه منذ صباه، فكان يسمع القصيدة فيحفظها
كلها ويؤديها من أولها الى آخرها، وكان ينظر في الكتب فيحفظها عن ظهر
قلب، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه، ثم هلم
جرا الى الأول، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية ويصوغها
شعرا عربيا.

وكان بديع الزمان مقبول الصورة خفيف الروح حسن العشرة شريف
النفس، حلو الصداقة مر العداوة، وإلي جانب ذلك كان ألبا معتزا بنفسه، وكان
يفارق البلاد والرؤساء إذا رأى منهم جفوة، ولذلك نراه كثير التجوال والترحال
لايكاد يقر له قرار، وقد زار أصبهان وسنه أثنتا عشرة سنة، ثم فارق همذان
وعمره اثنتان وعشرون سنة وذهب إلى أصبهان مرة أخرى، حيث زار الصاحب
ابن عباد، ثم زار جرجان ثم قصد نيسابور سنة ٣٨٢، وفيها كتب مقاماته

(١) الغياض الأشجار الكثيفة - الخمر بالتحريك ما وارك من الشجر والجبال أدب الخمر اسير على

غير هدى.

(٢) الشطط الخروج عن الحد، أسجج لأن وتساهل.

الشهيرة، وغادر نيسابور الى سجستان، ثم الى غزنه، وأخيرا ذهب الى هراة وصاهر إحدى الأسر الكريمة وانتظمت أحواله، ولكن مات عن أربعين عاما، وقيل: إنه مات مسموما وقيل: إنه مات من السكتة وعجل دفنه فأفاق في قبره وسمع صوته بالليل، ومات من هول القبر.

وكان القرن الرابع الهجرى الذى ولد فيه بديع الزمان قرن النهضة العلمية والأدبية، وقرن التائق فى الأسلوب والتعمق فى المعانى، وجاء أدب بديع الزمان صورة للأدب فى تلك الفترة المزدهرة.

المقامات :

عرفت لفظة مقامة فى العصر الجاهلى بمعنى المجلس أو الجماعة الذين يجلسون فى المجلس، وفى العصر العباسى استعملت بمعنى الحديث الأدبى المكتوب، ثم استعملت بمعنى الحديث الذى يلقي فى المجلس، وقد أعطى بديع الزمان المقامة معنى اصطلاحيا غلب عليها، حيث استعملها فى (حديث المعتفين الذى يلقي فى جماعة فى شكل قصصى يهتم بالأسلوب ويتخذ رواية وبطلا).

وبديع الزمان أول من أنشأ المقامات واتخذ رواية وبطلا، والرواية عيسى ابن هشام، والبطل أبو الفتح الاسكندرى فى معظم المقامات وهما شخصيتان خياليتان لا وجود لهما؛ وقصد بديع الزمان الى إعطاء نفسه حرية الحركة فى الأزمنة والأمكنة، ويبدأ المقامة بعبارة (حدثنا عيسى بن هشام قال)، وفى المقامة يلتقى عيسى بن هشام بأبى الفتح الاسكندرى ويتعرف عليه بعد أن يستمع الى حديثه، وأحيانا يتعرف عليه قبل أن يستمع الى حديثه، وقد ظهر أبو الفتح الاسكندرى بطلا لأربعين مقامة من مجموع المقامات التى وصلت خمسين مقامة، ولا يظهر أبو الفتح فى سمة واحدة فى المقامات فهو تارة شاب وتارة كهل وتارة وسيم وتارة قبيح المنظر، كما أنه يظهر فى مواقف مختلفة تبعا للحكاية فى كل مقامة فتارة يتسول بالأدب، وتارة يعظ الناس، وتارة يوصى ابنه بالحرص على المال وتارة ينقد الشعراء والكتاب، وتارة ينقد المذاهب والمعتقدات، وأبرز صفات أبى الفتح أنه ذكى واسع الحيلة مثقف ضليع فى العلم والأدب محب

للمال، وفي بعض المقامات يظهر عيسى بن هشام بطلا للمقامة كما في المقامة الإبليسية، ولم تظهر المرأة إلا في أربع مقامات تتطلب المواقف فيها شخصية نسائية كساقية الخمرة، ولم تكن المرأة في تلك الفترة تؤدي أعمالا مهمة في المجتمع.

وهناك شخصيات ثانوية يمثلون بعض طوائف الشعب يختلفون في ثقافتهم واتجاهاتهم، ودائما تستجيب هذه الشخصيات لأبى الفتح وتتأثر بحيلته، وأحيانا تؤدي هذه الشخصيات أدوارا مهمة، وأحيانا أخرى لا تؤدي أدوارا مهمة كان يكونوا ضيوفا على مائدة أو ندامى في مجلس.

وقد كتب بديع الزمان هذه المقامات في نيسابور ما بين سنتي ٣٨٢-٣٨٣، وكان بديع الزمان طموحا يريد أن يتربع على عرش الأدب، وكان أبو بكر الخوارزمي زعيما للأدباء في نيسابور فاصطدم به بديع الزمان، وتطور الأمر إلى إقامة مناظرة بين الخوارزمي وبديع الزمان احتال فيها بديع الزمان للفوز بالمناظرة فالف قصيدة نسيها إلى أبي بكر يسب فيها على بن أبي طالب والشيعة، ثم إنه استهزأ بأبي بكر ليثير أعصابه، وتحدى البديع أبا بكر أن يكتب رسالة يبدأ بآخرها وتقرأ من أولها، ولم يكن أحد يجيد ذلك إلا بديع الزمان، وفاز البديع بالمناظرة، ومرض أبو بكر ومات قبل أن يحول عليه الحول.

وأراد بديع الزمان أن يقدم جديدا غير الشعر والرسائل فكتب المقامات، وكان يجلس في المسجد بعد العشاء ويقول: اقترحوا موضوعا أملئ فيه مقامة، فيقترحون موضوعا يملئ فيه ليعلم الجميع أنه يرتجل ولا يعد للمقامة، وأعجب الناس بالمقامات وأقبلوا عليها وذاع صيت بديع الزمان.

وتدور موضوعات المقامات حول الكدية وهي التكسب بالأدب، وتصور ظواهر اجتماعية، وقد شهد المجتمع جماعة من المكدين يعرفون بالساسانيين يقتحمون الأماكن العامة ويستجدون الناس، بعضهم ينشد شعرا وبعضهم يرقص قردا وبعضهم يدعى العمى إلى آخر تلك الألاعيب التي لا يزال صداها في المجتمع، وكان بديع الزمان يهدف إلى نقد الأوضاع الفاسدة في المجتمع.

وقد صورت المقامات جوانب من نفسية بديع الزمان كحبه للمال وحبه للترحال واعتزازه بنفسه وإشفاقه على الأدباء، ودافع في مقاماته عن مذهبه البديعي وعاب الأسلوب المرسل الذي يجرى فيه الكاتب على البديهة، كما صورت المقامات جوانب من المجتمع غير الكدية والمكدين فصورت قطاع الطرق والواعظين المنافقين وسذاجة العامة واستغلال الدين لتحقيق الأطماع الفاسدة وتحدث عن مسئولية الحاكم عما يجرى في قصره وفي بلده .

وتحدثت المقامات عن بعض الظواهر الأدبية وناقشت بعض القضايا فصورت مجالس الأدباء وما يجرى فيها من مناقشات ونظرة أدباء عصره إلى الشعراء القدامى وحفلت بكثير من الأخبار والنوادر والأوصاف الأدبية، وصورت الحالات النفسية، وامتازت بالعرض الماهر والأسلوب الشائق .

وأسهمت المقامات في تطور القصة القصيرة في الأدب العربي، فنصف المقامات تقريبا تعد قصصا قصيرة فيها عناصر القصة من الزمان والمكان والشخصيات والعقدة والحل، وعالجت موضوعات نابغة من المجتمع أيام بديع الزمان، واتبعت المقامات مقاييس النقد في عصرها، ولا يصح أن نطبق مقاييس النقد في عصرنا على أدب العصر العباسي .

شياطين الشعراء :

فكرة شياطين الشعراء فكرة قديمة ظهرت في العصر الجاهلي، وقالوا: إن لكل شاعر شيطانا يوحى إليه الشعر، فشيطان امرئ القيس عتيبه، وقيل: لافظ، وشيطان الأعشى مسحل، واستمرت فكرة شياطين الشعراء في العصور التالية، وتحدث كل من جرير والفرزدق عن شيطانه الذي يوحى إليه الشعر، وكذلك تحدثوا في العصر العباسي عن شيطان بشار بن برد وأبي نواس وغيرهما .

المقامة الإبلية :

ولما جاء بديع الزمان الهمداني في القرن الرابع الهجري كتب مقاماته كما أسلفنا ومنها المقامة الإبلية، وتدور حول شياطين الشعراء، وميزة بديع الزمان

أنه جسد الشيطان وأبرزه وأجرى حوارا بين الشيطان وعيسى بن هشام بطل
المقامة .

وتحكى المقامة أن إبلا لعيسى بن هشام ضلت وخرج صاحبها فى طلبها
فقابل شيخا جالسا فسلم عليه، وطمانه الشيخ أن إبله موجودة وسيعثر عليها،
ويتضح بعد حوار طويل أن الشيخ أبو مرة وهو من شياطين الشعراء، ويكشف
الشيخ عن أنه شيطان جرير، وأنه الذى أُملى على جرير شعره .

وطلب الشيخ من عيسى بن هشام أن يسمعه شيئا من أشعار العرب،
فأسمعه أشعار الفحول من الشعراء مثل امرئ القيس ولبيد، فلم يعجب الشيخ
بشيء من ذلك، وقال : أنا أنشدك من شعري، وأنشده قصيدة مطلعها :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

وهذه القصيدة من شعر جرير، وهى قصيدة مشهورة، وعاب عيسى بن
هشام على الشيخ أنه يدعى شعر غيره، فلم يدافع الشيخ عن نفسه، وإنما طلب
سماع شعر لأبى نواس، فأنشده عيسى ابن هشام فطرب الشيخ، فقبحه عيسى بن
هشام لأنه ادعى شعر غيره، ولأنه طرب لشعر أبى نواس .

ودل الشيخ عيسى بن هشام على مكان يذهب اليه فيجد إبله الضالة،
وكان حديثه على طريق الإلغاز كما سنوضح فى حديثنا التالى، وقد ألغز بالنحى
عن المذبة التى يطرد بها الدباب ، وجعل لهذا النحى لحية يباهى بها ويعنى شعر
المذبة، وألغز بالحوث المصروع عن الذبالة المحبوسة فى زيت السراج وجعل النور
عمامة له، وجعل حجر الطاحونة الذى يفرز الزيت أبا للحوث وطرف الذبالة
ذهبا، والباقى ذنبا .

ثم كشف الشيخ عن شخصيته وأعلن أنه أبو مرة شيطان جرير، وهو الذى
أُملى عليه تلك القصيدة، وأكد أن لكل شاعر شيطانا يوحى إليه، ثم اختفى
الشيخ أبو مرة، وتوجه عيسى بن هشام الى المكان الذى دله عليه، فوجد رجلا
فى يده مذبة فعرف أنه أبو مرة الذى كان يحادثه منذ قليل، وناول الرجل

مسرجة، ودله على غار مظلم، فدخل عيسى بن هشام فوجد الإبل وأخذها، وفوجئ عيسى بن هشام بأبى الفتح الاسكندري، وطلب أبو الفتح من عيسى أن يحمله على جمل وأن يقدم له الطعام والشراب، ثم أخبر عيسى صاحبه أبا الفتح بخبر الشيخ، فأشار أبو الفتح إلى أنه احتال على أبي مرة حتى أخذ منه هذه العمامة التي يضعها على رأسه، فتعجب أبو الفتح لأن صديقه احتال على الشيطان .

التعليق :

شخصيات القصة : هذه المقامة تعد قصة قصيرة شخصياتها ثلاثة :

عيسى بن هشام وإبليس، وأبو الفتح الاسكندري، والبطل هنا عيسى بن هشام، وقد أسلفنا أن أبا الفتح ظهر بطلا في أربعين مقامة، وهنا يمثل البطولة عيسى بن هشام ويلتقى بأبى الفتح في آخر المقامة، ويظهر عيسى هنا رجلا مثقفا يحفظ الشعر وينسب القصائد الى أصحابها، وهى صفات ملازمة لبطل المقامات . ويتصرف عيسى بن هشام تصرفا طبيعيا فقد خرج يبحث عن إبله، ويرتاع حينما يرى الشيخ فجأة، ويتهم الشيخ حينما ينسب شعر جرير الى نفسه، ويحتقر تصرفات الشيخ الذى يخرج عن وقاره، ويطيع الشيخ حين يرشده الى مكان ضالته لأنه متلهف على العثور على إبله الضالة، ومن مظاهر ذكائه أنه فهم الألغاز التى ألغهاها الشيخ، وبعد أن عرف أنه أبو مرة اهتدى الى أن الرجل الذى رآه بعد ذلك هو أبو مرة نفسه، أما أبو الفتح الاسكندري فدوره محدود، وقد أكد ذكائه بأنه احتال على إبليس نفسه .

أما الشيطان أبو مرة فقد تصرف تصرفات تتلاءم مع فكرة الإنسان عن الشيطان، فنحن نعتقد أن الشيطان قادر على صنع الخوارق، وأنه قادر على التشكل فى أشكال مختلفة، وأنه داعية الى الفسق مروج له .

أحداث المقامة :

تدور أحداث المقامة أو أحداث القصة القصيرة حول فكرة شياطين

الشعراء، وقد استطاع بديع الزمان أن يكون قصة قصيرة محكمة النسيج مهد فيها للقاء الشيطان بعيسى ابن هشام بضياح الإبل وخروج البطل للبحث عن إبله، وتقيد بالفكرة التاريخية المتوارثة في الأدب، والتزم الاسم المتوارث لشيطان جرير فسماه أبا مرة، وجسم الشيطان وأبرزه وحاوره، وأورد بعض الأوصاف الطبيعية للوادي والنهر والشجر والثمار والأنهار لتكون قصة شائقة، وحفلت بعنصر المفاجأة، فقد ارتاع عيسى حينما رأى الشيخ أمامه، وأذهلته المفاجأة مرة أخرى حينما عرف أن الرجل أبو مرة، وفوجيء مرة ثالثة حينما رأى أبا مرة أمامه وفي يده مذبة، وفوجيء رابعة حينما رأى إبله داخل الغار المظلم.

والأحداث تتوالى في ترابط وانسجام لا تكلف فيه إذا لاحظنا فكرة الإنسان عن الشيطان وقدراته ومكره، ولا يبدو التكلف إلا في المشهد الأخير من القصة، حين أعلن أبو الفتح أنه احتال على الشيطان وأخذ منه هذه العمامة، ولا نعرف كيف حدث ذلك؟ والذي دفع بديع الزمان إلى ذلك أنه دأب على إظهار أبي الفتح بمظهر المحتال العبقرى فأراد أن يبرز هذه الصفة عنده، ولم يكن هناك داع لذلك.

الألغاز : حفلت المقامات بالألغاز، وكان بديع الزمان يورد كثيرا من الألغاز ويوجه أسئلة - أحيانا في صورة ألغاز يعجز السامعون عن حلها، ثم يوضح ما غمض منها، ويورد هنا ألغازا فيورد المذبة التي يطرد بها الذباب في صورة ملغزة فقد صورها وعاء يدور حول القدور، لأن المذبة تدور حول القدور لطرد الذباب، وجعل الوعاء يباهى بلحيته إشارة إلى الشعر الموجود في المذبة، ثم أورد السراج في صورة ملغزة فصوره حوتا محبوبا في البحر إشارة إلى الذبالة المغموسة في الزيت، وهو يلدغ كالزنبور إذا لسع، ويعتم بالنور إشارة إلى النار المشتعلة في أعلاه، وجعل له أبا وأما، وجعل رأسه ذهبيا لأن النار في لون الذهب، واسمه لهب لأنه نار، وباقي الذبالة ذيل له، وهو يأكل الملابس كالسوس، وهو آفة الزيت لأنه يستهلكه، وهو شريب للزيت أكل للفتيل، يبذل ضوءه، ويهوى الصعود

بفعل الهواء، وكلها أوصاف دقيقة تحيط بالمنظر وتبرز المعنى وتكون صورة منسجمة، وتكشف عن عبقرية بديع الزمان .

الزمان والمكان :

تدور أحداث هذه القصة فى زمن قصير لا يتجاوز ساعات محدودة هى مدة الحوار الذى دار بين عيسى بن هشام وأبى مرة وتناشدا فيه الأشعار، ثم اللقاء الثانى بينهما أمام الغار، حيث دار حوار قصير دخل بعده عيسى الغار وعثر على إبله، ثم لقى أبا الفتح الاسكندرى ودار بينهما حوار قصير أنشد خلاله أبو الفتح بيتين اثنين .

وكذلك تدور أحداث القصة فى مكانين، المكان الأول بين المناظر الطبيعية الجميلة، حيث تقابل عيسى بن هشام وأبو مرة، والمكان الثانى أمام الغار، حيث قابل عيسى أبا مرة ثانى مرة، وأخذ عيسى المسرحية ودخل الغار الذى وجد فيه إبله، وتتوالى الأحداث ولا نرى زمنا ساقطا تجاوزه المؤلف كما يحدث فى بعض القصص القصيرة .

العقدة والحل :

العقدة هى المشكلة التى تثير تطلعا وتجعلنا ننتظر الحل ونبغى الوصول الى النهاية، وتظهر العقدة هنا عند مقابلة أبى مرة، من هذا الرجل؟ وكيف عرف أنه ينشد إبله؟ وكيف عرف أن عيسى بن هشام صاحبها؟ وهل سيصدق فى وعده؟ وتزداد الدهشة حين نعرف أن الرجل أبو مرة، ويختفى فجأة ثم يظهر فجأة .

ويجب الحل عن كل هذه التساؤلات حين نعرف أن الشيخ شيطان، وتجيب الفكرة المستقرة فى أذهاننا عن الشيطان عن باقى التساؤلات، فقد استقر فى الأذهان أن الشيطان قدير على صنع الخوارق وأنه يرانا ولا نراه، نقول: إن الحل طبيعى لا افتعال فيه .

الأسلوب :

تأتى المقامات عن طريق السرد الذى يتخلله الحوار، والمقامة الإبلية تاتى على لسان عيسى بن هشام وإن كان بطلها فهو يقول : أضللت إبلاى فخرجت فى طلبها، ويتخلل الحوار السرد، ويمثل الحوار هنا ثقلا لا يقل عن السرد، فنرى الحوار بين عيسى وأبى مرة يحتل مكانة كبيرة وتتطور أحداث القصة عن طريق هذا الحوار ، وفى النهاية نرى حوارا قصيرا بين عيسى بن هشام وأبى الفتح الاسكندري، ويدور الحوار حول قضايا تتعلق بالأدب، أولاها شياطين الشعراء، وثانيها تفوق الشعراء القدامى والتسليم بعظمتهم، وتلفتنا أبيات أبى نواس الى قضية افتتاح القصائد بالبكاء على الأطلال، كما سنوضح بعد قليل، ويكشف الحوار عن اهتمامهم بالالغاز واتخاذها دليلا على الذكاء والمقدرة الفنية .

ويحتوى الحوار على صراع أدبى، فالشيخ ينسب القصيدة لنفسه، وعيسى ابن هشام يعلن أنها من شعر جرير، والشيخ لا يهتم بشعر الشعراء الجاهليين وعيسى يعجب بهم وينشد لهم، والشيخ يعجب بأبى نواس، وعيسى يصفه بأنه فويسق عيار، ويكشف الحوار أيضا عن ذكاء الشيخ ومعرفته بكل الأمور .

وأسلوب المقامة مسجوع، وبديع الزمان يلتزم السجع وأسلوبه صورة صادقة لأسلوب الأدباء فى القرن الرابع الهجرى، وكانوا يعدون ذلك دليلا على المقدرة الفنية، ويهتم بديع الزمان بالازدواج، وهو تساوى الجملتين فى النغم الموسيقى، كما فى قوله : « وأشجار باسقة وأزهار يانعة » ويهتم بديع الزمان بالطباق والجناس أيضا، ومن الطباق والمقابلة قوله : « يسوؤك ما يسره، وينفعك ما يضره » ومن الجناس قوله : « دالتك وضالتك، ذهب ولهه وذنوب » .

وبديع الزمان يعرف كيف يختار ألفاظه، وفى مطلع المقامة نراه يختار لكل شىء صفة ملائمة فالأنهار مطردة، والأشجار باسقة، والأثمار يانعة، والأزهار منورة، وكلها ألفاظ توحى بالجمال وتبعث النشوة فى النفوس، ولفظ راعنى يوحى بالفزع، ولفظ قبحك الله يوحى بالاشمزاز والنفور، وتصغير فاسق ليوحى بحقارته، وهذا مقياس خلقى لا فى، ويأتى بديع الزمان بصيغ المبالغة مثل أكل وبذول وشحاذ .

ويعزج بديع الزمان الشعر بالنثر، وأول الأشعار التي تقابلنا قصيدة جرير، وهو شاعر أموى ذائع الصيت، ثم ينشد أبو مرة أبياتا لأبى نواس يهاجم فيها البكاء على الأطلال ويدعو الى الحياة فى الحاضر، وسنعلق على هذه الأبيات بعد قليل، وثالث المجموعات الشعرية أبيات أنشأها بديع الزمان على لسان أبى الفتح الاسكندري، وهكذا نرى أن الأبيات التي وردت فى المقامات بعضها لشعراء سابقين، وبعضها من إنشاء بديع الزمان الهمداني .

وتحفل المقامات بالصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات، وقد تحدثنا عن الألغاز، وكلها صور بيانية ومنها نحى استعارة تصريحية، حيث شبه المذبة بالنحى، ويدور ويزهى ويباهى، استعارات مكنية، حيث شبه بإنسان وحذف المشبه به وأتى بما يدل عليه، وتتجمع هذه الصور وترسم صورة كلية فيها الصوت واللون والحركة .

القيمة الأدبية :

تحدثنا عن المقامات وأن نصف المقامات تقريبا يعد قصصا قصيرة أسهمت فى تطور القصة العربية القصيرة، وكان الأدباء يتحدثون عن شياطين الشعراء، وجاء بديع الزمان فجسد الشيطان وأبرزه وواجهه وأنشده وسمع منه، وقد أثرت هذه المقامة الإبليسية فيمن جاء بعده، ونحسب أن أبا العلاء تأثر بها فى رسالة الغفران حين تحدث عن شياطين الشعراء، وكذلك تأثر بها ابن شهيد حين تحدث عن نقاد الجن حينما ذهب الى أرض الجن .

وتلفتنا هذه المقامة الى عدد من القضايا الأدبية، أولا تعظيم الشعراء القدامى، وكان نقاد العرب يفضلون القدامى تفضيلا مطلقا دون النظر الى الشاعر ومقدرته الفنية، ولذلك نرى عيسى بن هشام حينما طلب منه الشيخ أن يسمعه شيئا من أشعار العرب أسمعه من أشعار الشعراء الجاهليين، ولم يسمعه شعرا من صدر الإسلام أو من العصر الأموى أو العباسى، وقد تغيرت هذه النظرة شيئا فشيئا .

أما القضية الأدبية الثانية فهي بكاء الأطلال، فقد كان من عادة الشعراء العرب أن يبدؤوا قصائدهم بالغزل وبكاء أطلال المحبوبة جرياً على التقليد الجاهلي، كما قال امرؤ القيس في مطلع معلقته.

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وجاء أبو نواس وكان شعوبياً يهاجم العرب، وكان محباً للخمر يشربها ويجاهر بها ويصفها، ودعا أبو نواس إلى ترك البكاء على الأطلال ودعا عليها وحقر من شأنها ومن شأن العرب، ودعا إلى الحياة في الحاضر والتمتع بمظاهر الحياة الجميلة، كما نرى في هذه الأبيات حيث يعلن أنه لا يبكي الأطلال ولا يحن إلى سماع صوت حادي الإبل، ويدعو إلى هجرها مادامت قد أقفرت من الحبيبة، ويشيد بليلة قضاها بين الكفوس والندامى وساقى الخمر اللطيف الطيب في مظهره والعربيد في حقيقة أمره.

وكانت هذه الدعوة جذيرة بالاحترام لولا أنه دعا إلى افتتاح القصائد بوصف الخمرة والكفوس والشاربين وما يتبع ذلك، ولولا أنه تغزل بالذكر كما يتغزل بالمؤنث، والنفوس السوية تنفر من الخمر ومن الغزل بالذكر، ولذلك لم تنجح هذه الدعوة إلا في حدود ضيقة ومن المعروف أن الغزل بالذكر طراً على الشعر العربي بعد قيام الدولة العباسية ودخول الفرس بغداد، وكان الفرس يتغزلون بالذكر فتأثر بهم بعض شعراء العرب.

* * *

المقامة الأسدية

حدثنا عيسى بن هشام قال: كان يبلغني من مقامات الاسكندري ومقالاته ما يصغى اليه النفور، وينتفض له العصفور، ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة، وأنا أسأل الله بقاءه، حتى أرزق لقاءه، وأتعجب من قعود همته بحالته، مع حسن آتته^(١) وقد ضرب الدهر شئونه^(٢) بأسداد دونه الى أن اتفقت لي حاجة بحمص، فشحذت اليها الحرص، في صحبة أفراد كنجوم الليل، أحلاس^(٣) لظهور الخيل، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته^(٤) ولم نزل نفرى اسنمة النجاد^(٥) بتلك الجياد، حتى صرن كالعصى، ورجعن كالقسي^(٦).

وتاح لنا واد في سيفح جبل، ذي ألأء واثل^(٧) كالعذارى يسرحن الضفائر، وينشرن الغدائر، ومالت الهاجرة بنا اليها، ونزلنا نغور ونغور^(٨) وربطنا الأفراس بالأمراس^(٩)، وملنا مع النعاس، فما راعنا إلا صهيل الخيل، ونظرت الى فرسى وقد أرهف أذنيه، وطمح بعينيه، يجذّ قوى الجبل^(١٠) بمشافره، ويخذ خد الأرض بحوافره^(١١) ثم اضطربت الخيل فارسلت الأبوال، وقطعت الجبال، وأخذت نحو الجبال، وطار كل واحد منا الى سلاحه، فإذا السبع في فروة الموت، قد طلع من غابه، منتفخا في إهابه^(١٢) كاشرا عن أنيابه بطرف قد ملئ صلفا، وأنف قد حشى أنفا^(١٣) وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى:

(١) الآلة الحالة أى مع حسن استعداده

(٢) شئون الدهر صروفه وأحداثه.

(٣) أحلاس جمع جلس الكساء الذى يوضع تحت البرذعة والمراد ملازمتهم لظهور الخيل.

(٤) الشافة قرحة في القدم، استأصلها أزالها.

(٥) أسنمة جمع سنم، والنجاد ما ارتفع من الأرض.

(٦) القسي جمع قوس أى، من شدة الهزال.

(٧) الألأء والأثل شجر.

(٨) نغور نهبط في الأرض المنخفضة، ونغور ننام في النهار.

(٩) الأمراس جمع مرسى الخيال. (١٠) يجذّ يقطع. (١١) يخذ يشق.

(١٢) الإهاب الجلد. (١٣) الأنف الكبير والصلف المعجب.

أخضر الجلدة في بيت العرب يملاً الدلو إلى عقد الكرب^(١)

بقلب ساقه قدره، وسيف كله أثر وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه، حتى سقط ليدته وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه، وافترش الليث صدره، ولكنى رميته بعمامتي وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجاً بطنه^(٢)، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة في جوفه، ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا منها ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه.

فلما حثونا التراب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد^(٣) ونفذ الزاد، أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع عن لنا فارس فصمدنا صمده^(٤) وقصدنا قصده، ولما بلغنا نزل عن حر فزسه، ينقش الأرض بشفتيه^(٥)، ويلقى التراب بيديه، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى، وتحرم بجنايى، ونظرت فإذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل^(٦) وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل^(٧) وعارض قد أخضر، وشارب قد طر^(٨) وساعد ملآن، وقضيب ريان، ونجار تركى^(٩)، وزى ملكى فقلنا مالك؟ لا أبالك، فقال: أنا عبد بعض الملوك، هم من قتلنى بهم^(١٠)، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالى مالك، فقلت:

(١) الكرب: الخيل الذى يشد فى أعلى الدلو على الجانبين، والخضرة السمرة أى من خالص العرب.

(٢) وجأ: شق.

(٣) المزاد: جمع مزادة وعاء الماء من الجلد، ضمرت كناية عن نفاد الماء.

(٤) صمدنا: قصدنا.

(٥) أى يقبلها بشفتيه.

(٦) العارض السحاب، المتهلل البارق.

(٧) ترقى تصعد، وتسهل تصوير فى السهل أى تهبط والمراد بملا الناظر بهجة.

(٨) العارض الحد، طر ظهر.

(٩) النجار الأصل.

(١٠) هم أراد وهو دون التصميم.

بشرى لك وبك، أذاك سيرك الى فناء رحب وعيش رطب، وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتلنى الحاظه، وينطق فتفتننا الفاظه .

فقال : يا سادة، إن فى سفح الجبل عينا، وقد ركبتم فلاة عوراء ^(١) فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعنة الى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب العيدان ^(٢) فقال : ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب، على هذا الماء العذب؟ فقلنا : أنت وذاك ، فنزل عن فرسه وحل منطقته، ونحى قرطقه ^(٣) فما استترعنا إلا بغلالة تنم على بدنه ^(٤) فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد الى السروج فحطها، وإلى الأفراس فحشها ^(٥) وإلى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه، فقلت : يا فتى، ما الطفك فى الخدمة، وأحسنك فى الجملة، فالويل لمن فارقه، وطوبى لمن رافقته، فكيف شكر الله على النعمة بك؟ فقال : ما سترونه منى أكثر، أتعجبكم خفتى فى الخدمة، وحسنى فى الجملة؟ فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة؟ أريكم من حذقى طرفا، لتزدادوا بى شغفا، فقلنا : هات ، فعمد الى قوس أحدنا فاوتره، وفوق ^(٦) سهما فرماه فى السماء، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء ، وقال : ساريكم نوعا آخر، ثم عمد الى كنانتى ^(٧) فاخذها، وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبتته فى صدره، وآخر طيره من ظهره، فقلت : ويحك ما تصنع؟، قال : اسكت يا لكع ^(٨) والله ليشدن كل منكم يد رفيقه، أو لأغصنه بريقه ^(٩) فلم ندر مانصنع وأفراسنا مربوطة، وسروجنا

(١) فلاة عوراء : لا ماء بها .

(٢) الجنادب : تحب الحر وركوبها العيدان دليل الحر الذى لا يطاق .

(٣) المنطقة : الحزام والقرطقة قباء .

(٤) الغلالة : الثوب الرقيق، تنم تكشف .

(٥) حشها : جمع لها الحشيش .

(٦) اوتره : وضع فيه الوتر، فوق سدد .

(٧) الكنانة : وعاء السهام .

(٨) اللكع : اللثيم .

(٩) أغصنه بريقه : أجعله لا يبلغ ريق كناية عن هلاكه .

محطوطة، وأسلحتنا بعيدة. وهو راكب ونحن رجالة، والقوس فى يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور^(١)، وحين رأينا الجد، أخذنا القد^(٢) فشدد بعضنا بعضا، وبقيت وحدى لا أجد من يشد يدي، فقال: اخرج بإهابك عن ثيابك، فخرجت، ثم نزل عن فرسه وجعل يصنع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه، وصار الى وعلى خيفان جديدان، فقال: اخلعهما لا أم لك، فقلت: هذا خف لبسته رطباً فليس يمكننى نزعه، فقال علىّ خلعه، ثم دنا الى لينزع الخف، ومددت يدي الى سكين كان معى فى الخف وهو فى شغله، فأثبتته فى بطنه، وابنته من متنه^(٣)، فما زاد على فم فغره^(٤)، والقمة حجرة، وقمت الى أصحابي فحللت أيديهم، وتوزعنا سلب القتيلين، وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه، وصار لرمسه^(٥) وصرنا الى الطريق، ووردنا حمص، بعد ليال خمس، فلما انتهينا الى فرضة^(٦) من سوقها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وبنيه، بجراب وعصية، وهو يقول:

رحم الله من حشا فى جرابي مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمة
إنه خادم لكم وهى لاشك خادمة

قال عيسى بن هشام: فقلت: إن هذا الرجل هو الاسكندرى الذى سمعت به، وسألت عنه فإذا هو هو، فدلفت إليه^(٧)، وقلت: احتكم حككم، فقال: درهم، فقلت:

لك درهم فى مثله مادام يسعدنى النفس
فاحسب حسابك والتمس كيما أتيل الملتمس

(١) يرشق السهم يرميه، ويمشق يمزق

(٢) القد: جلد يوثق به.

(٣) المتن: الظهر.

(٤) فغر فمه فتحة، القمة حجرة سد فمه.

(٥) الرمس: القبر.

(٦) الفرضة: الفرجة من الطريق.

(٧) دلفت إليه: أسرعت إليه.

شرح المقامة الأسدية

سميت هذه المقامة بالمقامة الأسدية لأن الجماعة التقت بالأسد فى أثناء رحلتها الى حمص، وقد مهد بديع الزمان، على لسان عيسى بن هشام - لهذه الرحلة وبين الدافع إليها وهو ما سمعه عن أبى الفتح الاسكندرى من ذكائه وفصاحته وغوصه فى أعماق الأمور وجمعه بين الشعر والنثر، حتى إن عيسى بن هشام كان يدعو الله أن يمد فى عمر أبى الفتح حتى يلقاه، ومع ذلك فقد كان حظ أبى الفتح دون عبقريته ولم يحتل المكانة اللائقة به.

وتحدث عن الرحلة الى حمص فى صحبة فتیان جمعوا بين الطلعة البهية والشجاعة الفائقة التى جعلتهم ملازمين لظهور الخيل، وقد طالت الرحلة حتى أضنت الخيل وجعلتها كالعصى وكالقسي، ولم يغفل بديع الزمان وصف الطبيعة الجميلة، فوصف الوادى الذى يضم الأشجار الفارعة الطول تتهدل أغصانها كأنها عذارى يسرحن الضفائر وهنا ربط بين الطبيعة والمرأة.

وألجأتهم حرارة الصحراء الى اللجوء الى ظلال الأشجار وربط الخيول والاستسلام الى النعاس، وهنا تحدث المفاجأة الأولى، حيث اضطربت الخيول وقطعت الحبال وضربت الأرض بحوافرها وفرت نحو الجبال، وفزع الرجال الى سلاحهم، وإذا الأسد طالع عليهم يكشر عن أنيابه، وهنا يتقدم أحد الفتیان الشجعان لينازل الأسد، ولكن الفتى تخونه قدماء أمام منظر الأسد المهيبة فيسقط على الأرض، وينظر الأسد الى مجموعة الرحلة فيتقدم الى الأسد فتى آخر ولكن الرعب يشل يديه فيسقط على الأرض ويحتم الأسد فوق صدره، ويسرع عيسى بن هشام لإنقاذه فيرمى الأسد بعمامته ليشغله عن الفتى، ويجد الفتى فرصة فيطعن الأسد طعنة نافذة، ويهلك الأسد ويهلك الفتى لما أصابه من الرعب، ويحاول أفراد الرحلة استرداد الخيول الهاربة فيستردون بعضها ويفلت بعضها، ويدفنون رفيقهم ويحثون عليه التراب. ثم تستأنف الجماعة السير وتحدث المفاجأة الثانية حيث يظهر فارس ينزل عن فرسه ويدجأ الى عيسى بن هشام ويعلن أنه عيدهارب من سيده بعد أن أراد السيد قتل عبده، وتسرع الجماعة بالعبء الذى أهدها القدر إليهم، ويطنب عيسى بن هشام فى وصف العبد،

فوجهه يبرق ، وقوامه كالقضيبي الريان، وجماله جمال الأتراك، وزيه زى الملوك، وفصاحته تستولى على الألباب .

وأشار عليهم الفتى بأن يلجئوا الى واد ظليل به عين ماء لياخذوا قسطا من الراحة فاطاعوه وحطوا الرحال، ونزل الفتى عن فرسه وحط السروج عن ظهور الخيول، وحشّن الحشيش لإطعام الخيول ورش الأرض، وعرض عليهم أن يريهم من فنون حذقه ألوانا وركب فرسه وأرسل سهما في الهواء وأتبعه بآخر شق السهم الأول، ثم رمى أحدهم بسهم أثبتته في صدره، ورماه بآخر خرج من ظهره، ثم أمرهم بأن يتخلوا عن كل ما معهم وأن يربط كل منهم أخاه بسير من الجلد، واضطروا الى الخضوع، ونظر الفتى الى عيسى بن هشام فرآه يلبس خفين جديدين وطلب منه أن ينزعهما ، واحتج عيسى بن هشام بأنه ليس الخف رطبا ولا يمكن نزعهما، ونزل الفتى لينزع الخف، وعندما شغل بنزعهما أخرجه عيسى سكيناً كان قد خبأها في الخف، وطعنه في بطنه فخر قتيلا، وقام عيسى بن هشام فحل رفاقه وتوزعوا سلب القتيلين زميلهم وقاطع الطريق، وواصلوا الرحلة الى حمص فأروا في السوق رجلا معه صبية وصبية وهو ينشد شعراً يطلب فيه العطاء لطفليه، وعرف عيسى أن الرجل أبو الفتح الاسكندري، فسلم عليه وأعطاه ووعدته بأن يقدم اليه كل ما يريد .

* * *

التعليق على المقامة

المقامة الأسدية قصة قصيرة مشوقة مستوفية لعناصر القصة من الأحداث والشخصيات والزمان والمكان والعقدة والحل، وفيها الإثارة والمفاجأة والتشويق، وتتضح فيها سمات أسلوب بديع الزمان، وسنتحدث عن كل ذلك بالتفصيل.

الأحداث - تدور هذه المقامة حول ما يجرى في مجتمع بديع الزمان آنذاك، فقد صورت قبل كل شيء الاهتمام بالأدب حيث ذاع صيت أبي الفتح الاسكندري وتحدث عنه الناس، ويشير أيضا إلى سوء حظ بعض الأدباء حيث يحتلون مكانة أدنى مما يليق بهم، وقد كان بديع الزمان يشعر بتفوقه ويرى أنه مهضوم الحق لا ينال ما يستحق من إكرام وإكبار، وكان يشفق على الأدباء ويرثي لهم، وظهر ذلك في بعض مقاماته.

وصورت المقامة الرحلة في العصر العباسي حيث كانت هذه الرحلة على ظهور الخيل لأن أفرادها كانوا فرسانا ملازمين لظهور الخيل، وهذا لا يمنع أن بعض الرحلات كانت تتم على ظهور الإبل، وكانت الرحلات جماعية حيث كان المسافر يتعرض لسطوة اللصوص أحيانا، وللوحوش أحيانا أخرى كما حدث في هذه الرحلة، وصور بديع الزمان مشقة السفر وصعود المرتفعات وهبوط الوديان حتى إنها تؤدي إلى إرهاق الخيول، ولم يترك بديع الزمان تصوير بعض الأماكن الجميلة التي يلجأ إليها المسافرون ويحتمون بها من حرارة الشمس.

وتحوى القصة حادثين مفاجئين أضفيا على القصة جدة وتشويقا، والحادث الأول طلوع الأسد على الجماعة، وقد أبدع بديع الزمان في وصف هذا الموقف حيث صور الأسد في صورة مفزعة أفزعت الخيول وأفزعت الجماعة، وهذه حقائق معروفة، وصور بديع الزمان شجاعة الفتیان حيث تقدم فتى نشيط لمنازلة الأسد، ووصف الفتى بأنه عربي أصيل، ولكن هيبة الأسد شلت حركته فسقط على الأرض، وتقدم فتى آخر لمنازلة الأسد فحدث له ما حدث لسابقه، واستطاع بديع الزمان أن يشغل الأسد حتى طعنه الفتى فخر الأسد قتيلا، وهلك الفتى لما أصابه من الرعب بعد أن برك الأسد على صدره.

أما الحادث الثانى فبطله قاطع طريق ظهر فى صورة فارس، وأضفى بديع الزمان على هذا الفارس صفات جسمية ونفسية ساعدت على ميل الجماعة إلى هذا الفتى وتصديقه وتتلخص الصفات الجسمية فى جمال الوجه والقوام والشباب والنضرة وقوة الساعد وأضاف إلى ذلك جمال الزى، كما أضفى على الفارس صفات نفسية تتلخص فى الذكاء والقدرة على الإيهام بما يريد، فهو يقبل الأرض بشفتيه ويلمسها بيديه ويقبل الركاب ويدعى أنه عبد هارب من سيده بعد أن هم سيده بقتله، ويعلن أنه من الآن عبد لعيسى بن هشام، وترحب به الجماعة.

ويستمر الفارس فى تمثيل دوره الذى رسمه بإتقان فيشير عليهم بالنزول فى مكان ظليل، وتقبل الجماعة اقتراحه، ويجردهم من كل سلاح ليضمن عدم المقاومة، ويركب حصانه ويوجه سهمين إلى أحد أفراد الجماعة فيقتله، ويجردهم حتى من ملابسهم، ويشتاق القارىء والسامع إلى معرفة النهاية حيث طعن عيسى بن هشام قاطع الطريق فأرداه قتيلاً.

والأحداث هنا مترابطة وإن تنوعت وسارت فى اتجاهات متعددة، ويلقى سير الأحداث قبولاً وانبهاراً، أما الجزء الأخير من المقامة فيبقى بمعزل عند سير الأحداث التى تكون سير القصة، حيث يصل الركب إلى حمص ويلقى أبا الفتح الاسكندرى وهو يحتضن صبياً وصبية وينشد شعراً يطلب فيه العطاء ولا دخل لهذا الجزء فى تطور أحداث القصة.

الشخصيات - تضم القصة شخصيات رئيسة وأخرى ثانوية، وقد عرفنا أن بديع الزمان اتخذ للمقامات راوية وبطلاهما عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندرى وهما شخصيتان رئيستان، وهنا يتقاسم البطولة شخصيتان هما عيسى بن هشام وقاطع الطريق، فعيسى بن هشام يروى القصة ويقود الرحلة ويشغل الأسد عن الفتى الذى نازله حيث يرمى الأسد بعمامته فيتمكن الفتى من قتل الأسد، ثم يستقبل عيسى بن هشام قاطع الطريق الذى أدعى أنه عبده هارب ويجرى الحديث معه ثم يسايره إلى المكان الظليل وأخيراً يدبر لقتل

اللس حيث يتظاهر بعدم قدرته على خلع خفه ويستل سكيناً كان قد خبأها ويطعن بها اللص فيرديه قتيلاً، ثم يواصل السير حتى يلقي أبا الفتح ويحادثه ويقدم العطاء الذى يطلبه .

أما الشخصية الأساسية الأخرى فهو قاطع الطريق ، وقد أوضحنا الدور المهم الذى قام به، وهو دور مؤثر فى الأحداث ، وهناك شخصيات ثانوية، وبعض هذه الشخصيات يؤدي دوراً مهماً، وهنا يبرز الفتيان اللذان تقدما لمنازلة الأسد، وكذلك يؤدي الأسد دوراً بارزاً فى القصة ، وقد ساعدت هذه الشخصيات فى خلق الصراع وإعطاء الأحداث حيوية وتشويقاً، أما سائر الشخصيات المرافقة فى الرحلة فتؤدي دوراً ثانوياً غير بارز ، وكذلك أبو الفتح الاسكندرى جاء دوره فى هذه القصة ثانوياً لم يزد على إنشاء الشعر وطلب العون وإن كان عيسى بن هشام قد خرج مرتحلاً يقصد لقاء أبى الفتح الاسكندرى .

الزمان والمكان - فى المقامة الأسدية تتعدد الأماكن حيث تخرج الجماعة فى رحلة قاصدين حمص، وتقطع الصحراء ويقابلون الأسد فى أثناء سيرهم، ثم يلقون قاطع الطريق ويميل بهم الى مكان ظليل به عين ماء وأشجار متهدلة الأغصان، ثم يواصلون السير فى الصحراء حتى يصلوا إلى حمص ويلقون أبا الفتح فى أحد أسواقها، وتتنوع المناظر هنا بين صحراء قاحلة ومكان عامر بالمناظر الطبيعية الجميلة وسوق يغص بالناس ويقف فيه أبو الفتح الاسكندرى ينشد أشعاره ويطلب العطاء، وتجرى الأحداث فى أماكن ملائمة لها .

ويطول الزمان بعض الشيء حيث تخرج القافلة فى رحلة قاصدين حمص، وهى رحلة طويلة شاقة، وتستغرق مناظرة الأسد وقتاً، ويستغرق قاطع الطريق وقتاً فى إظهار خداعه وفنون الأعيه، ويستغرق أبو الفتح وقتاً فى إلقاء أشعاره والتحليل لأخذ العطاء حتى يحقق ما يريه، ولكن الزمن لا يطول كثيراً ويظل ملائماً لأحداث القصة القصيرة، ومن الممكن أن تستغرق الرحلة كلها يوماً أو بعض يوم .

العقدة والحل - العقدة هي المشكلة التي تثير تطلعا وتجعلنا نتطلع الى معرفة الحل، ويحسن أن يأتي الحل متولدا من الأحداث لا تكلف فيه، وفي المقامة الأسدية عقدتان بارزتان، ولكل عقدة منهما حل مناسب، ونرى العقدة الأولى في ظهور الأسد الذي يواجه الجماعة ويبت الرعب في كل شيء حتى إن الخيل تقطع الخيال وتهرب الى الجبال، وهنا يتطلع القارئ الى الحل، ويأتي الحل مناسبا حيث يتقدم فتى. شجاع لمنازلة الأسد ولكن تخونه قدماه، ويتقدم آخر فيسقط السيف من يده، ويفترش الأسد صدره، ثم يتمكن الفتى من طعن الأسد، ويموت الأسد ويموت الفتى لما أصابه من الرعب، ويتقبل الذوق والخيال هذا الحل المناسب.

تم تظهر العقدة الثانية حين نكتشف أن الفارس القادم ما هو إلا قاطع طريق، ونسأل: ماذا ستفعل الجماعة بعد أن جردهم اللص من ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم؟ ويأتي الحل مناسبا حيث يدعى عيسى بن هشام أن لا يستطيع خلع خفه الذي لبسه رطباً، ويتقدم اللص ليخلع الخف، ويطعنه عيسى بن هشام بسكين كان قد خبأها في خفه، ويموت اللص، وتخرج الجماعة من المازق، وهكذا يضع بديع الزمان لكل عقدة حلاً ملائماً متولداً من الأحداث.

التصوير : حفلت المقامة بالصور الجزئية والكلية، وتنوع هذه الصور بين التشبيه والاستعارة والكناية، وبعض هذه الصور قديم مطروق، وبعضها جديد يزخر بالحياة والعاطفة، ومن التشبيهات المطروقة قوله في وصف الخيل: (صرن كالعصى ورجعن كالقسي) ، ويقول: (أفراد كنجوم الليل) وهو تشبيه مطروق ولكنه معبر يوحى بالعظمة والاشراق، ومن الكنايات قوله: (يصغى إليه النفور) وينتفض له العصفور) وهما كنايةتان عن قوة التأثير، ومنها (ركب الجنادب العيدان) كناية عن شدة الحرارة .

ومن التشبيهات الجديدة التي تزخر بالعاطفة قوله: (كالعداري يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر) يشبه الأشجار المهتدلة الأغصان بفتيات يسرحن شعورهن. ومن الاستعارات قوله: (ضرب الدهر بأسداد دونه) وهي استعارة تصريحية، شبه العقبات التي تواجه أبا الفتح بالأسداد الحسية، وحذف المشبه،

ومن الاستعارات المكنية قوله : (شحذت الحرص) شبه الحرص بالسيف وحذف المشبه به ، وأتى بما يدل عليه وهو الشحذ .

ويرسم بديع الزمان صوراً كلية تحقق الغرض وتبعث الإعجاب ، ومن ذلك قوله فى وصف الأسد : (فإذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه ، منتفخا فى إهابه ، كاشرا عن أنياه ، بطرف قدملىء صلفا ، وأنف قد حشى أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب) ، ويقول فى وصف الفتى قاطع الطريق : (وجه يبرق برق العارض المتهلل ، وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل ، وعارض قد أخضر ، وشارب قد طرّ ، وساعد ملآن ، وقضيب ريان ، ونجار تركى ، وزى ملكى ، وكلها صور تفيض بالعاطفة وتوحى بالمراد .

الأسلوب - تأتى المقامة عن طريق السرد الذى يتخلله الحوار ، وهذا يخلق جدة ونشاطا ويبعد الملل والرتابة ، ويأتى السرد على لسان عيسى بن هشام الراوية ، وفيه طرافة وتنويع ، فهو يتحدث عن نفسه ، ويتحدث عن أبى الفتح الاسكندرى وفصاحته وبراعته ، وفى خلال السرد يصف الفرسان ويصف قاطع الطريق ويصف الأسد ويصف الطبيعة الجميلة والقاحلة ، فهو يصف البيئة بكل مظاهرها ، وهو لا يكتفى بالوصف الظاهرى وإنما يحلل النفسيات كما رأينا ، فهو يصور نفسية الأسد والخيول ونفسية الرفاق وقاطع الطريق وأبى الفتح الاسكندرى ، وفوق ذلك فإنه يحقق المفاجأة ويخلق الصراع ويحكم العقدة والحل ، وقد رأينا المفاجأة فى ظهور الأسد ، وفى تكشف حقيقة الفارس القادم ، كما أنه يثير الصراع بين الأسد والجماعة ، وبين قاطع الطريق والجماعة ، وبذلك يحقق الإثارة والتشويق .

ويعزج بديع الزمان بين النثر والشعر ، ويقتبس لحات من القرآن الكريم ، ويأتى ببعض الأمثلة ، فحين يتحدث عن دفن رفيقه الذى مات من الرعب يقتبس البيت :

فلما حثونا التراب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع ؟

وفى وصفه للفتى الأول الذى تقدم لمنازلة الأسد اختصر بيتين للشاعر الهبى وأخرجهما فى بيت واحد ، والبيتان هما :

من يساجلنى يساجل ماجدا يملا الدلو الى عقد الكرب
وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة فى بيت العرب
وقد اختصرهما فى بيت واحد وغير ترتيب الشطرات فقال :

أخضر الجلدة فى بيت العرب يملا الدلو إلى عقد الكرب

واستعان بلمحات من القرآن الكريم حين قال : (خاصم الولدان وفارق الجنان) ، وفى القرآن الكريم فى حديث عن الجنان : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ﴾ وأتى ببعض الأمثلة العربية فهو يقول عن الفتى الذى أرعبه منظر الأسد : (سقط ليده وفمه) وهناك مثل عربى : (للبدن وللغم) وفيه دعاء بالهلاك ، وقال بديع الزمان لقاطع الطريق : (لا أب لك ، ولا أم لك) وهو مثل عربى ، وقال عن قاطع الطريق حين سقط قتيلًا : (ألقمه حجره) كناية عن الصمت الأبدى ، وهو مثل أيضا .

وبرع بديع الزمان الهمداني فى اختيار ألفاظه ، فهو يختار الألفاظ الموحية التى تصور الموقف وتوحى بالمشاعر التى يولدها الموقف ، وقد رأينا وصفه للأسد حيث يقول : (فإذا الأسد فى فروة الموت) حيث جعل فروة الأسد تضم الموت مجسما ، ونرى الكلمات : (منتفخا ، كاشرا عن أنيابه ، صلفا ، أنفا) ، ونرى قوله : (نفرى أسنمة النجاد) وفى وصف فرع الخيول يقول : (يجذ قوى الحبل ، ويخذ خد الأرض) وكذلك أوصافه للفتى قاطع الطريق ، وغير ذلك .

وكان بديع الزمان يميل الى اختيار الألفاظ الغامضة بقصد تعليم النشء اللغة العربية الأصيلة ، وهنا يقول : (شحذت الحرس ، أحلاس لظهور الخيل ، نستأصل شأفته ، نفرى أسنمة النجاد ، نحى قرطقته إلى آخر هذه الألفاظ .

ويأتى بالأساليب الإنشائية يمزجها بالأساليب الخبرية ، والأساليب الإنشائية تشير الانتباه وتوقظ الأذهان وتطرد الملل ، ومن قوله : (لا أبالك) وهو أسلوب تعجب سماعى ، وقوله : (يا فتى ، ياسادة) وهو نداء للتعظيم ، وقوله : (خذوا الماء) أمر للنصح ، وقوله : (ألا تقيلون ؟) استفهام للتقرير حيث دخلت الهمزة على نفى ، وقوله : (ما أطفك) أسلوب تعجب ، وقوله : (اسكت يالكع) أمر

ونداء للتحقير، وقوله : (والله ليشدن) قسم للتوكيد، وقوله : (رحم الله) أسلوب خبرى لفظاً إنشائي معنى أمر للدعاء .

وأسلوب بديع الزمان أسلوب مسجوع، وقد ساد هذا المذهب فى القرن الرابع الهجرى وهو القرن الذى عاش فيه بديع الزمان الهمذانى، وصار الاتيان بالسجع والمحسنات البديعية من مظاهر المقدرة والتفوق، ويلتزم بديع الزمان بهذا الأسلوب فى كل كتاباته، وحين نقرأ الفقرة الاولى نرى السجع واضحاً ونرى الازدواج ويراد به تساوى الجملتين فى النغم الموسيقى مثل قوله : (يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور) وقوله : (يمتزج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة) .

ونرى الطباق والجناس، ومن الطباق قوله : (ترقى العين وتسهل) وقوله : (فارقت ورافقت) ومثله المقابلة وتكون بين جملتين مثل : قعود همته بحالته مع حسن آله) وقوله : (تألفنا منها ما ثبت وتركنا منها ما أفلت) .

ونرى الجناس أيضاً، ويراد به تشابه الحروف مع اختلاف المعنى مثل : (مقامات ومقالات) ومثل : (رقة ودقة) ، (بقاءه ولقاءه) ، (ونغور ونغور) .

* * *

خطبة أبي جعفر المنصور العباسي

عندما قبض أبو جعفر المنصور على عبد الله بن حسن بن علي وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته خطب في خراسان معقل الشيعة حيث صعد المنبر فحمد الله وصلى على نبيه ثم قال :

يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم - والله - والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ويطانته وثقاته فقتلوه .

ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل، قد عرضت عليه الأموال فقبلها، فُدس إليه معاوية وقال له : أجعلك ولي عهدي من بعدى فخدعه، فأنسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه، ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة فخذلوه وأسلموه حتى قتل .

ثم قام من بعده زيد بن الحسن فخدعه أهل الكوفة وغزوه وأظهروه وأسلموه، وقد كان أتى محمد بن علي، فسأله محمد بن علي ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم زيد خروجه فقتل وصلب بالكناسة .

ثم وثب علينا بنو إمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ، ففر الحق مقره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين .

فلما استقرت الأمور فبينما على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا
وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من
خلافته وميراث نبيه ﷺ .

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبست الخلتان الجهل والجبن
فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة .

* * *

الشيعة أنصار على بن أبي طالب .
تلطخ إني بما يسىء إلى سمعته، أنسلخ خرج مما هو فيه .
الكناسة موضع بالكوفة، ترة ثار .
الجهل سرعة الغضب وفساد الرأي، الخللة الخصلة والصفة .

* * *

أبو جعفر المنصور

ثاني الخلفاء العباسيين، وكان العباسيون منذ أوائل القرن الثاني الهجري قد بدءوا يعدون لانقلاب يطيح بالدولة الأموية ويقيم دولة يرأسها أهل البيت، واتخذ العباسيون خراسان مقرا لدعوتهم، لأن الفرس كانوا يدينون بالولاء لآل البيت وهم بطبيعتهم يميلون إلى تقديس حكامهم، ثم إن الفرس كانوا يكرهون بنى أمية، لأن بنى أمية حصروا السيطرة في يد العرب ولم يجد الفرس المساواة مع العرب ولا العدل بينهم.

وجعل العباسيون الدعوة لآل البيت ولم يحددوا أحدا في بادئ الأمر خشية بطش الأمويين، وكانوا يعدون الجيش سرا إلى جانب الدعوة السياسية، وأخيرا تمكن جيش خراسان بقيادة أبي مسلم الخراساني من هزيمة جيش الأمويين، وأعلن قيام الدولة العباسية، وكان أول خليفة عباس أبو العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ومات السفاح سنة ١٣٦، وتولى أبو جعفر المنصور، وكان ذكياً شجاعاً، وكان قاسياً لا يرحم، وقتل قائده أبا مسلم الخراساني حين شك فيه.

وعند قيام الدولة العباسية ثار العلويون على أبناء عمومته، وأعلنوا أن العلويين أحق بالخلافة، ولم يجد العباسيون بدا من القبض عليهم والإلقاء بهم في السجون، وعندما ثار عبد الله بن حسن بن علي قبض المنصور عليه وعلى من كان يناصره.

وألقي أبو جعفر هذه الخطبة في خراسان حتي يجتذب أهل خراسان وينفرهم من العلويين.

* * *

شرح الخطبة

عندما قامت الدولة العباسية ثار العلويون وأعلنوا أنهم أحق بالخلافة لأنهم أولاد فاطمة بنت النبي ولأنهم أبناء على ابن عم النبي عليه السلام ، وعبثا حاول العباسيون استمالتهم فقبضوا على زعماء العلويين ، وقبض المنصور على عبد الله ابن حسن بن على وقبض على أنصاره وألقى بهم فى السجون .

ورأى المنصور أن يجتذب إليه أهل خراسان أنصار أهل البيت ، والعباسيون والعلويون من آل البيت ، فألقى المنصور هذه الخطبة فى خراسان وأشاد بأهل خراسان ونسب إليهم الفضل فى قيام الدولة العباسية ، ثم إنه شنع على العلويين لينفر أهل خراسان منهم ، وأعلن أن العباسيين أيدوا العلويين فى بادئ الأمر ولم ينافسوه فى طلب الخلافة ، ولكن على بن أبى طالب لطيخ سمعته وأثار عليه أنصاره حتى قتلوه ، وهو يشير إلى قصة التحكيم فى معركة صفين ، فقد أوشك جيش على الانتصار ، فلجأ معاوية وعمرو بن العاص إلى حيلة حيث رفعوا المصاحف وقالوا : كتاب الله يحكم بيننا ، وهنا انقسم جيش على فأيده التحكيم طائفة ، وعارضه طائفة أخرى ، ولم يجد على بن أبى طالب بدا من إيقاف الحرب ، واختار أبا موسى الأشعرى ممثلا له ، واختار معاوية عمرو بن العاص ، واتفق الحكمان على خلع على ومعاوية ، وصعد أبو موسى المنبر وأعلن خلع صاحبه على ، ثم صعد عمرو بن العاص وأعلن تثبيت صاحبه معاوية ، وهنا انقسم جيش على وخرج عليه الذين كانوا يعارضون التحكيم وسموا الخوارج ، ولجأ على إلى حريهم .

ثم أشار أبو جعفر إلى موقف الحسن بن على حيث بايعه الشيعة بالخلافة ولكنه أثر السلام وأرسل إلى معاوية بذلك ، وعرض عليه معاوية أن يرسل إليه مائتى ألف درهم كل عام وصدق الحسن ووقع على التنازل عن الخلافة ، وقصد إلى معاوية ولكن معاوية دس له السم فى شرابه ومات ، ولذلك يقول فيه المنصور، فوالله ما كان فيها برجل .

ثم بايع الشيعة الحسين ، وأرسل إليه أهل العراق يحثونه على المسير إليهم
ووعده بمناصرته ، وصدق الحسين وتوجه إليهم ، وكان يزيد بن معاوية قد أرسل
جيشاً إلى العراق فتحلى أهل العراق عن الحسين ، وتركوه مع أهله من النساء
والصبيان وقتل الحسين ومن معه ، وجذت رأسه وأرسل بها إلى يزيد بن معاوية .
وباع الشيعة زيد بن علي بن الحسين ، ونصحه أبناء عمه من العباسيين ألا
ينخدع بدعوة أهل العراق ولكنه لم ينتصح ، وكان مصيره القتل والصلب .
وبعد أن أظهر المنصور مساوئ العلويين وشنع عليهم اتجه إلى الأمويين ذاكراً
جرائمهم وتنكيلهم بآل البيت دون أن يكون هناك ثأر بين آل البيت والأمويين ،
وأعلن أمام أهل خراسان أنهم أصحاب الفضل في نصرة آل بيت النبي عليه
السلام وقيام دولة العباسيين والقضاء على أعدائهم ، وإعادة الخلافة إلى وضعها
الصحيح في آل بيت رسول الله .
وأخيراً عاد إلى الطعن على العلويين وأعلن أنهم حقدوا على أبناء
عمومتهم الذين خلصوهم من قبضة الأمويين بعد أن جبنوا وضعفوا أمام أعدائهم
من بني أمية ، ووصف العلويين بالجين والحقده .
وبذلك حقق المنصور هدفه من الطعن على العلويين وعلى الأمويين وتأكيد
حق العباسيين في الخلافة ، وإجتذاب أهل خراسان إليه ، وتبرير ما فعله بالعلويين
من القبض عليهم وسجنهم .

* * *

نقد الخطبة

اشتهر العباسيون بالفصاحة وبرز منهم خطباء كثيرون منهم أبو جعفر المنصور الخليفة الثاني ، ويبدو في هذه الخطبة فصاحة المنصور وتدفعه مع الطبع وعدم التكلف ويمتاز أسلوبه بالسهولة والوضوح ، ونادرا ما نرى كلمة تحتاج إلي تفسير ، كما أنه لا يتكلف المحسنات البديعية ، وقد يأتي الطباق والجناس عفوا لإبراز المعنى أو لتوليد الموسيقى ، وقد اقتبس الخطيب آية من القرآن الكريم هي قوله تعالى : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وتمثل بالآية في حديثه عن القضاء على بني أمية ، كما أنه اقتبس بيتا من الشعر في حديثه عن العلويين وموقفهم من العباسيين ، والبيت هو :

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبعست الخلتان الجهل والجبن

وقد بدأ الخطبة بأسلوب نداء (يا أهل خراسان) والنداء للتعظيم ، ثم وصف أهل خراسان بصفات ثلاثا : شيعة وأنصارنا وأهل دولتنا ، والعطف هنا لبيان تعدد المزايا ولتأكيد الفضل .

وفي حديثه عن العلويين وصفهم بقوله : أهل بيتي ، وأضاف إلى ياء المتكلم لبيان أنهم كانوا قريبين من قلبه ، وأكد ذلك بأن ، وأتى باسم الإشارة (هؤلاء) لاستحضار الصورة ، وأتى بأسلوب القسم (والله) حين ذكر أنهم تركوا الخلافة للعلويين ولم ينازعوهم فيها ، وأتى هنا بطباق يتطلبه الموقف (بقليل ولا كثير) ، وهذا يبرز عدم تعرضهم لأبناء عمومته .

وحين تحدث عن علي بن أبي طالب عابا عليه أتى بلفظ تلطخ وهو لفظ منفر يوحي بارتكابه عثلا مشينا ، والفعل (حكم) مضعف والتضعيف يفيد الكثرة لأن الحكمين سلباه إرادته ، وكانوا يقولون : الحكم لله ، وأتى بمعطوفات تفيد الشمول فعطف واختلفت ووثبت على افترقت ، وأتى بمعطوفات تفيد سخط الناس جميعا : (شيعة وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته) وفي حديثه

عن الحسن بن علي وصفه بقوله : (فوالله ما كان فيها برجل) لأنه تنازل عن الخلافة ، وأكد ذلك بالقسم (والله) ، وأظهر شجاعته بأنه صدق وعد معاوية له بأن يجعله خليفة من بعده ، ولذلك قال : خدعه ، والفعل انسلخ يوحى بخروجه من الأمر تماماً ، وأكد هذا التنازل بقوله : وسلمه إليه ، وفي حديثه عن الحسين ذكر الخديعة أيضاً وكررها في حديثه عن زيد بن علي ليفيد أن العلويين لا يصلحون للأمور السياسية ، وعطف الأفعال : غرره وأظهره وسلموه ليؤكد ذلك .

وفي حديثه عن العباسيين أتى بما يؤكد ذكاءهم وبعد نظرهم ، وقد للتأكيد ، وعطف ناشده وحذره علي سأل ليفيد الإمعان في الطلب ، ولم في قوله : (لم يقبل) لتأكيد النفي ، وفي حديثه عن بني أمية أظهر ظلمهم وقسوتهم فأتى بالفعل وثب ، وعطف عليه آما تواتر شرفنا وأذهبوا عزنا ، ولتأكيد عدوانهم ذكر أنه لم يكن بينهم ثار قديم ، وأكد ذلك بالقسم ، وحصر أسباب العدوان في بني أمية وأتى بأسلوب قصر أدواته النفي والاستثناء ، وأكد ب كله (وما كان ذلك كله إلا منهم) .

ثم عاد إلي بيان فضل الخراسانيين فقال : حتى ابتعثكم الله لنا شيعة ، وجعلهم من جنود الله أرسلهم لنصرة آل بيته ، وأهل خراسان أسلوب نداء للتعظيم حذفت أدواته ، وأتى بطباق جميل : (ودفع بحقكم أهل الباطل) ، وفي قوله : ميراثنا ، أضاف الميراث إلى العباسيين لتأكيد شرعية خلافتهم ، والفعل قر يفيد الثبوت والدوام ، وقر ومقر جناس ، وظهر السجع هنا : قر مقره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وهو يولد موسيقى ظاهرة ، والفعلان الماضيان : فضلنا وأكرمنا لتأكيد الحدوث ، وبيت الشعر يصف العلويين بالجهل والجن - وهذه الخطبة من الخطب السياسية .

* * *

الضمـرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
أبو تمام يمدح المعتصم ويصف الربيع	٤
البحتري يصف البركة ويمدح المتوكل	١٦
ابن الرومي يرثي ابنه محمداً	٣٠
المتنبي يعاتب سيف الدولة الحمداني	٤٣
رسالة أحمد بن طولون الى ابنه العباس	٥٦
المقامة الإبلسية لبديع الزمان الهمذاني	٦٧
المقامة الأسدية لبديع الزمان الهمذاني	٨٠
خطبة أبي جعفر المنصور في خراسان	٩٣

رقم الايداع بدار الكتب: ٩٩ / ١٤٠١٠

الترقيم الدولي: 3 - 028 - 315 - 977

دار التوفيق النموذجية للطباعة

أوفست - تحضير أوفست - كمبيوتر

ت: ٥١١٥٣٠٤